RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM

نساء في قطار الجاسوسية

صالح مرسي

مكتبة محمد علي الصغير

صالح مرسى

نساء فى قطار الجاسوسية

مكتبة بلدية
٦ - ايار ١٩٩٣
رقم ٤٥٢٤٨

الجزء الأول

00045248

مدبولى الصغير

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر لا يجوز استنساخ أى جزء
من هذا الكتاب أو اختزانه بأى وسيلة إلا بإذن خطي من الناشر

الغـلاف للفنـان : **سيد عبد الفتاح**

٣٢٧,١٢
سرال

المقـدمـة

لماذا يرتبط وجود المرأة فى مجال الجاسوسية بالجنس ؟!

كان هذا السؤال الذى طرحه علىّ أحد الزملاء ذات يوم أثناء مناقشة حول دور المرأة فى هذا الحقل الغريب والخطير ؟! ... وليس هناك مجال لإنكار هذه الحقيقة وإن كانت ، فى واقع الأمر ، ليست مطلقة ، فليس شرطاً أن يقترن وجود المرأة فى أية عملية من عمليات الجاسوسية بالجنس كعملية فسيولوجية ... وربما كان السبب فى شيوع هذه المقولة أو هذا التصور ، سواء فى عالمنا العربى أم فى العالم كله ، أن « الجنس » وسيلة من وسائل السيطرة فى هذا المجال المحفوف بالمخاطر ...

إذا كانت وسائل السيطرة تتنوع بتنوع نقاط الضعف من إنسان لإنسان ... إلا أن الثابت تاريخياً ، أن « الجنس » هو ملك يسيطر على البشر فى كل العصور ، وإذا كان للمال كوسيلة من وسائل السيطرة ، تأثير السحر على بعض النفوس ، إلا أن الجنس ، بما يحتويه من آثاره تفرضها طبيعته !

غير أنه لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان حقيقة أخرى بسيطة وبديهية ، هى : أن كلمة « الجنس » لا تعنى المرأة وحدها ، ذلك أن مدلول الكلمة له قطبان أساسيان وإلا انتفى المدلول أصلاً ... هذان القطبان هما : المرأة والرجل معاً ... وإذا كان التاريخ يحتفظ لنا بأسماء رجال تمت السيطرة عليهم بواسطة نساء وقعوا فى حبهن ، فهناك أيضاً – ربما ليس على نفس القدر من الذيوع والشهرة – نساء سيطر عليهن رجال بنفس الوسيلة !

ولقد قادنى هذا السؤال – بالتداعى – إلى مجموعة أخرى من الأسئلة :

فلماذا ارتبط التجسس فى كل عصور التاريخ بالرجل كعنصر أساسى والمرأة كعامل مساعد ؟!

ولماذا كانت كلمة « جاسوس » تعنى رجلاً ولا تعنى « إنساناً » ، بالرغم من ندرة تلك العمليات التى تمت فى التاريخ دون وجود المرأة فيها كعنصر من عناصرها الأساسية ؟

غير أن التساؤلات رست فى النهاية عند سؤال أردت البحث عن إجابة له :

كيف كانت تلك المرأة التى ركبت قطار الجاسوسية ؟!

ما هى مواصفاتها ؟!

هل كانت هناك مزايا ، أو مواصفات خاصة للجاسوسية تغير موقعها ؟!

ثم ... هل هناك اختلاف بين الرجل « الجاسوس » والمرأة « الجاسوسة » ؟!

هل تتميز هذه عن ذاك أو هذا عن تلك بما يجعل للجنس كنوع ، ظواهر معينة تدل عليه ؟!

وراحت الأسئلة تثرى بلا توقف ، وجدت نفسى أحيا فى دوامة من البحث والمقارنات ، واكتشفت ، ليس فجأة بطبيعة الحال ، أن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة من نوع أكاديمى ، دراسة لابد وأن تبدأ بالبحث عن قصص بعض هاته النسوة اللواتى عملن فى حقل الجاسوسية !

وكان لابد – بداية – من تصور لهذا النوع الخطر من أنواع النشاط الإنسانى .

ولا أعتقد أنى – بالخيال – أتجاوز الحقيقة إذا ما قلت إنى أتصور الجاسوسية مثل قطار كانت محطته الأولى عند فجر التاريخ الإنسانى ... قطار يسير بطول هذا التاريخ إلى محطة أخيرة تبدو عند نهاية الجنس البشرى وحياته هو فوق سطح الأرض !!

وإذا كانت بعض النظريات تقول : أن التجسس وجد مع وجود الإنسان على سطح الأرض ، وحتى قبل تكوين المجتمعات ، فإن اصحاب هذه النظرية يردونها إلى تلك الحياة التى عاشها الإنسان الأول عندما كان يشرع فى اصطياد فريسة يتبلغ بها هو وأسرته وقبيلته ... إنه فى البداية يتقدم من الفريسة فى بطء وخفة متخفياً ، يعاين مكانها ، ومدى قوتها ، ووجودها داخل مجتمعها أو قطيعها ،

شاردة هى أم معها من يحميها ، قوية هى قوية أم ضعيفة ، وطبيعة الأرض من حولها ، ومواطن الضعف أو القوة فيها ... إنه هنا « يتجسس » على الفريسة ، هو هو نفس التجسس الذى يحدث حتى الآن بوسائل مختلفة وأساليب تقدمت بتقدم الحضارة الإنسانية ... حتى إذا حانت اللحظة المناسبة ، انقض على الفريسة واقتنصها !

هذا هو التجسس فى صورته البداية .

ونفس الشىء بالنسبة للتجسس المضاد .

فلقد كان الإنسان ، إذا ما استشعر الخطر من حيوان أو عدو ... أوى إلى كهفه ، وربما تسلق شجرة . وحصن نفسه ... إن الخطر القادم عليه فى حاجة إلى مواجهة لا تستعمل فيها القوة إذا ما كان الخطر القادم « أسدٌ جائعاً » على سبيل المثال ... وهو فى تحصنه هذا ، إنما يقوم بعملية تجسس مضاد ، أو ما تعودنا أن نطلق عليه خطأ اسم « مقاومة التجسس » !

لكن المدهش فى الأمر ، أن هذا التصور يقودنا إلى حقيقة جديرة بالتأمل : وهى أن التجسس والتجسس المضاد ، هى ، منذ بدء الخليقة ، عمليات عقلية بحتة ... تماماً ، كما أن أجهزة الاستخبارات فى العالم كله اسمها « ذكاء » !! ... ذلك أن القوة لا تستعمل إلا بعد تستنفذ العمليات العقلية تماماً ، وتصبح الفريسة ، أو العدو ، فى وضع يسمح للإنسان بأن يهاجم أو يدافع !

وإذا كان التاريخ قد حفظ لنا على جدران المعابد أو فوق أوراق البردى قصصاً للتجسس أو التجسس المضاد ، أو ربما عمليات من

تلك التى يطلق عليها « الخدمة السرية » ، كتلك العملية الباهرة التى قام بها الفرعون « سقنن رع » – أبو أحمس – ضد الهكسوس فعندما دخل الهكسوس إلى مصر ، انسحب الفراعنة إلى الصعيد ... وكان لابد من التفكير فى سبب انتصار الهكسوس على جيوش الإمبراطورية المصرية ... وتوصل الفرعون « سقنن رع » إلى أن التكنولوجيا هى السبب فى ذلك الانتصار ، فلقد جاء الهكسوس بالعجلة الحربية التى يجرها الجياد فتنطلق بسرعة شديدة وسط صفوف الجيش كى تبث الرعب والارتباك فى قلوب الجنود الذين تعودوا الحرب وجهاً لوجه ، ولابد أن الحركة السريعة للعجلة الحربية ، وقدرتها الفائقة على المناورة ، كانت مثار دهشة القواد المصريون وارتباكهم أيضاً ... وهكذا توصل « سقنن رع » إلى أنه لابد من الاستعانة بتلك التكنولوجيا الجديدة كى يتم طرد الهكسوس ... وإذا كان صنع العجلة الحربية فى حد ذاته أمراً سهلاً ، إلا أن الحصول على الخيول كان هو العقبة ... وهكذا ، أرسل الفرعون أربع مجموعات من الرجال – الذين نستطيع أن نطلق عليهم دونما تجاوز اسم الفدائيين ، أو رجال الصاعقة – كل مجموعة تتكون من أربعة أفراد ، وكانت مهمتهم هى الحصول على أكبر قدر من الخيول من ذكر وأنثى كى يتم تهجينها حى تصل إلى العدد المطلوب ... وإذا كان التاريخ يحمل لنا أن الرجل لم يحقق حلمه العظيم وإنما حققه ولده « أحمس » إلا أن التكنولوجيا المصرية التى نطلق عليها اسم « التحنيط » قد حفظت لنا مومياء « سقنن رع » الذى قتل فى إحدى المعارك الضارية بضربة سيف شجت رأسه وحطمت

جمجمته ... ويستطيع أى زائر للمتحف المصرى ، أن يرى مومياء ذلك الملك الذى مات دفاعاً عن وطنه ، مسجاة فى تابوتها الزجاجى هناك !!

كانت هذه واحدة من العمليات التى يطلق عليها فى كل أنحاء العالم كلمة « الخدمة السرية » ... وربما كان لمثل هذه العمليات اسماً أو أسماء لم نصل إليها بعد ، لكن الثابت إن كلمة تجسس بحروفها ومعناها ومدلولها ، لم ترد فى البرديات أو على جدران المعابد ... إنما كان رجل الفرعون يقول عن نفسه : « أنا عين فرعون » ... ثم وردت الكلمة بحروفها ومعناها ومدلولها ، لأول مرة ، فى التوراة .

ففى سفر « العدد » الإصحاح الثالث عشر ، سوف نقرأ :

« ثم كلم الرب موسى قائلاً : أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان » !

كانت هذه هى المرة الأولى التى ترد فيها الكلمة واضحة جلية ... وبالتالى ، فإنه من المذهل حقاً ، أن نقرأ كيف حدد نبى الله موسى لمن وقع عليهم الاختيار من بنى إسرائيل للذهاب إلى أرض كنعان ، مهامهم وواجباتهم بدقة تبعث على الدهشة والذهول ... فلقد جاء فى نفس الإصحاح :

« ... فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب . واطلعوا إلى الجبل ، وانظروا الأرض

ما هى ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ، قليل أم كثير ... وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها ، أجيدة أم رديئة ، وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون ، وكيف هى الأرض ، أسمينة أو هزيلة ، أفيها شجر أم ... ... » إلى آخره ما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر « العدد » حول هذا الموضوع .

الملفت للنظر هنا أن موسى عليه السلام حدد بدقة بالغة مهمة رجاله مما لا يخرج عن نفس المهام التى تطلب الآن لمن يذهبون إلى أرض الأعداء مع اختلاف « المظاهر » الحضارية لا أكثر ولا أقل ... إن هذا الذى جاء فى التوراة منذ آلاف السنين ، ليس سوى عملية تجسس فى أدق صورها تبسيطاً وتركيزاً فى نفس الوقت !!

كذلك سوف نجد فى نفس السفر – سفر العدد – فى الإصحاح العاشر ، أن نبى الله موسى يطلب من « حوباب بنى رعوئيل » أن يمضى مع بنى إسرائيل إلى حيث هم ذاهبون ... لكن حوباب يرفض قائلاً له : « لا أذهب بل إلى أرضى وإلى عشيرتى أمضى ، فقال – أى سيدنا موسى – لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازلنا فى البرية ، تكون لنا كعيون » !!!

وهذا – بالتالى – هو ما نطلق عليه اليوم اسم « التجسس المضاد » ... إن نبى الله ينبه حوباب إلى أنه يعرف عن بنى إسرائيل كل شىء ، فإذا ما جاء الأعداء وسألوه عنهم ، فلربما أعطاهم من المعلومات ما قد يضر ببنى إسرائيل !

وإذا كانت هذه هى البداية التى حفظها لنا التاريخ مكتوبة ... فإن قطار التجسس يقودنا – بقليل من التفكير – إلى حقيقة أخرى هى :

إن الجاسوسية نشاط إنسانى دائب ودائم لم يكف عن الحركة والتطور ومواكبة الصعود البشرى فى مدارج الحضارة مواكبة تلتصق به التصاقاً عضوياً ... ذلك أن هذا القطار العجيب ، قادر على تغيير آلاته وعجلاته ذاتياً بتغيير المعرفة الإنسانية وتطورها حضارة بعد أخرى ، وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وعاماً بعد آخر ، ويوماً بعد يوم ، وربما وصل الأمر الآن إلى حد أنه يتغير من ساعة إلى أخرى ... إنه قطار من نوع غريب حقاً ، هو قادر على استيعاب كل ما هو جديد فى العلوم بل والفنون والآداب أيضاً ... وإذا كنت أرى وأرجو إلا أكون مخطئاً – إن علم المخابرات ، وهو يشمل الجاسوسية والجاسوسية المضادة وكل ما يندرج تحتهما أو بينهما من أفرع أو مجالات استحدثت مع التطور العلمى ، قد أصبح فى العصر الحديث هو « علم العلوم » ... فمرد ذلك . إلى أنى أرى أن عباءة هذا العلم تتسع لكل علوم البشرية بلا استثناء ... بل ، قد يندهش البعض إذا ما عرفوا أن جزءاً هاماً من التطور الإنسانى الذى نطلق عليه كلمة : « تكنولوجيا » ، مرده أساساً – فى العصر الحديث بالذات – إلى نشاط أجهزة المخابرات وصراعها الدائم من أجل تطوير معداتها وأساليبها وأدواتها لبلوغ أهدافها أو لإبطال أهداف الأجهزة المعادية .

وهكذا ظلت التجربة الإنسانية تخوض فى هذا الحقل حسب ظروف كل مرحلة وتاريخها وإمكانياتها ومدى

تقدم العلوم أو تشابك المصالح فيها ، حتى قامت الدول والامبراطوريات وتحددت المصالح ووضعت الحدود ... وظل قطار الجاسوسية يحمل فى عرباته العديد من الرجال والنساء معاً ، يغادره من انتهت مهمته ، أو انكشف أمره ... وقد تطوى قصته صفحات التاريخ فتنزوى فى الأقبية ، أو تموت فى صدور القلة الذين عرفوها ... وقد ينكشف أمره فيلقى مصيره ويصبح غير ذى بال أو خطر !

لكن القطار دائماً ما يستقبل ركاباً جدد ، أو دماءً جديدة ... يصعد إليه من يلقيه قدره أو قدراته من هذا النفر من الناس الذين نعرفهم باسم « الجواسيس » ، فينجزون أو يسقطون ، يقومون بواجبهم حيال أوطانهم ، أو يخونون هذه الأوطان رغبة فى مال أو حباً فى امرأة أو رجل أو إيماناً بمبدأ أو عقيدة ... ويؤدى هؤلاء أدوارهم إلى أن تنتهى مهماتهم فيعتزلون . أو يسقطون لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة

غير إنى توقفت أثناء البحث والتنقيب فى حياة هاته النسوة اللواتى مارسن هذا العمل البالغ الخطر ، أمام ظاهرة ملفتة للنظر .

ذلك أن كل قصص الجواسيس من النساء اللواتى اشتهرن فى التاريخ أو عرفن بالبراعة والذكاء تكاد أن تخلو من الجنس إلا فيما ندر ... وإذا كان البعض منهن قد استعملن الجنس للوصول إلى مآربهن ... إلا أن نسبة لا بأس بها قمن بما قمن به تلبية لرغبة صادقة فى أن يلعبن هذا الدور الخطير ، وأن يعشن على حافة الجحيم ، لمجرد

الرغبة فى الاستمرار وسط لهيب الخطر ووخزات الخوف المميتة ... أنها تلك النشوة الغامضة التى تعترى هؤلاء الذين تعودوا الإحساس بالخطر وأصبحوا لا يجدون للحياة طعماً بدونه ... إن الأمر يبدو فى بعض جوانبه – وأرجو ألا أكون مبالغاً فى نظر البعض – وكأن كل الدوافع تنتفى وتذوب فى دافع واحد أسمى هو : الاستمرار فى ركوب الخطر !!!

ولم تكن هذه هى الظاهرة الوحيدة التى توقفت أمامها عند النساء اللواتى ركبن قطار التجسس ... فلقد توقفت أمام ظاهرة أخرى تكاد أن تكون طابعاً مميزاً لقصص هاته النساء المغامرات وهى تلك النهاية المأساوية التى تنتهى بها قصص من انكشف أمرهن .

إننا نقف أمام قصة « مرجريتا جروترود زيللى » التى عرفت فى التاريخ باسم « ماتا هارى » ، كى نشاهد نهايتها المأساوية ، ليست فى فرقة إطلاق النار التى اخترقت رصاصات بنادقهم صدرها الجميل الذى كثيراً ما أغرى جنرالات فرنسا بالبوح بأسرار الجيش إبان الحرب العالمية الأولى ... وإنما نهايتها المأساوية تتمثل فى امتدادها إلى ابنتها – ابنة ماتا هارى – التى كانت تبعد عنها بآلاف الأميال ... لقد أعدمت ماتا هارى فى يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩١٧ ، وكانت « باندا ماكلويد » – ابنتها التى تحدثنا عنها فى السطور السابقة – لا تزال طفلة فى أندونيسيا لا تعرف من أمر أمها شيئاً سوى أنها ترسل لها أجمل الهدايا وأفخر الثياب ... ولم تكن هذه الطفلة تدرى أن ثمة قدراً تمتد خيوطه من الأم سوف يلاحقها بعد نيف وعشرين عاماً لتخوض فى نفس الحقل وإنما بقدرة أكبر وذكاء أكثر حدة ...

إن قصة باندا ماكلويد تعتبر شيئاً مذهلاً بكل المقاييس ... وإذا كانت ماتا هارى قد استعملت سحرها فى التأثير على جنرالات الامبراطورية الفرنسية ، فإن باندا ، رغم جمالها الصارخ الذى يذهب البعض إلى أنه كان يفوق جمال أمها ، لم تلجأ إلى السحر أو الجنس ، ولم يكن هذا واحداً من وسائلها ... رغم أنها انتقلت من معسكر إلى معسكر ، تجسست لليابانيين وضدهم ، وللأمريكيين ، ووصلت إلى زعيم الصين الأسطورى « ماوتسى تونج » وجاء عليها وقت بدت وكأنها تعمل من وحى ذكاءها أو إحساسها ، وأنها أصبحت بلا رئاسة وبلا ضابط ، وانتهت ذات فجر دامس فوق ثلوج كوريا الشمالية ، ولولا المصادفة ، لما عرف أحد مصيرها حتى الآن .

ولماذا نذهب بعيداً ...

إن حكمت فهمى كانت من أشهر فنانات مصر فى الأربعينيات ولقد شاركت إبان الحرب العالمية الثانية فى واحدة من أعظم عمليات التجسس فى ذلك الوقت ... ولم يكن الجنس دافعها ، ولا المال أيضاً ... إن كل الشواهد تقول أنها اندفعت لمشاركة هانز ابلر أو « حسين جعفر » فى تجسسه على الإنجليز ، فى مصر بدافع وطنى ... شأنها شأن الكثيرين من المصريين إبان الحرب العالمية الثانية ... حتى إذا قبض عليها وزُج بها فى السجن ، خرجت بعد عام واحد دون أن تتفوه بكلمة ، أو تقابل صحفياً ، أو تحاول نشر قصتها التى كانت تعلم علم اليقين أنها سوف تدر عليها مبلغاً محترماً من المال ... خرجت حكمت فهمى من السجن الذى دخلته بتهمة سياسية ، ولم يكن فى هذا ما يشينها خاصة وأنها كانت تعمل ضد

جيش الاحتلال الذى كان الشعب كله يعمل ضده ، خرجت من السجن لا لكى تعود إلى الأضواء أشد تألقاً ، ولكنها آثرت الابتعاد ، بل الاعتزال ، والعودة إلى بلدتها فى الصعيد ، كى تنزوى هناك !!!

بعد نشر فصول هذا الكتاب فى عدد من الصحف والمجلات العربية ، صدر كتاب بعنوان « مذكرات حكمت فهمى » ، من اعداد الأستاذ حسين الملا ، والمذكرات فى مجموعها تؤيد كل كلمة كتبتها عن هذه الفنانة التى رحلت عن عالمنا دون أن ينتبه أحد إلى حقيقة الدور الوطنى الذى لعبته !!

إن أحداً ممن أرخوا لعملية حسين جعفر أو « هانزابلر » ... لم يتوقف أمام الدور الخطير الذى لعبته حكمت فهمى ، وربما كان السبب فى ذلك أن مصرياً واحداً لم يتعرض لتسجيل تلك القصة ، ويبدو أنهم اعتبروها قصة أجنبية ... لم يتعرض لتسجيل هذه العملية سوى كتَّاب أجانب ، لعل أشهرهم كان المراسل العسكرى البريطانى « ليونارد موزلى » ، والذى كان فى القاهرة أثناء العملية ، وكان له دور – هامشى بطبيعة الحال – فيها ، وله علاقة سابقة ببطلها الشاب الألمانى الأصل المصرى الجنسية الذى عرف باسم « حسين جعفر » ... ولقد وضع موزلى تحقيقه للقصة فى كتاب بعنوان « القط والفيران » !

ولقد تجاهل السيد موزلى الدور العظيم الذى لعبته حكمت

فهمى ، بل ربما أجرؤ على القول بأنه عاملها فى كتابه بتعال ممجوج... وبالرغم من هذا ، فلم يجرؤ ، لا هو ولا غيره ممن تناولوا العملية ، على القول بأنها تقاضت قرشاً واحداً نظير ما قامت به ، ولم يجرؤ أحدهم على القول بأنه كانت هناك علاقة بينها وبين حسين جعفر مما ينفى تماما وجود المال أو الجنس كدافع للتجسس ... ولا يبقى من عناصر التجسس الثلاثة ، إلا المبدأ ، أو الوطنية التى من أجلها فعلت حكمت ما فعلت !

... ...

... ...

وعلى كل فالتاريخ حافل وملىء ...

هناك – مثلاً – تلك السيدة التى كانت تدعى « كارمن مارى موري » ، التى عرفت أبان الحرب العالمية الثانية باسم « الملاك الأسود » لفرط قسوتها التى كانت لذتها العظمى !

وهناك قصة تلك الفتاة الفرنسية التى كانت تدعى « ميشلين كاريه » التى عرفت باسم القطة ، والتى بدأت حياتها كجاسوسة لصالح الوطن ، ثم انتقلت إلى معسكر الأعداء بسهولة لافتة للنظر ... لسوف يتقزز الكثيرون من هذه الفتاة ، لكنهم بالقطع سوف يرون شيئاً آخر إذا ما أمعنوا التفكير ، مثلما فعل الضمير الفرنسى ممثلاً فى رئيس الجمهورية ، الذى خفف حكم الإعدام عليها إلى السجن مدى الحياة !

وهناك تلك الفذة « سيبيل ديكلور » التى عرفت باسم « عروس الراين » ، والتى أتت من الألاعيب ما دوخ رجال مخابرات الحلفاء ، فاعترفوا لها بالقدرة والذكاء معاً .

أما « العميلة استيفانيا » فهذه هى الأستاذة ...

نعم ، أقولها وأعنيها ، فلقد كانت هذه السيدة أستاذة فى فن التجسس ، لقد استطاعت ، وهى تعمل لحساب مخابرات ألمانيا الشرقية ، أن تخترق المخابرات الأمريكية وأن تعمل فيها كى تصبح كل الأسرار بين يديها ...

و ...

ولقد حاولت أن أنوّع فى الأهداف والمرامى لكل جاسوسة ، غير أن كل هذا ، ليس سوى قطرة فى بحر بلا شطآن .

صالح مرسى

زهرة الشمس

أو ... ابنة ماتا هارى !

١

لم تحظ جاسوسة فى العالم بمثل شهرتها ، ربما لأنها استطاعت بجمالها الخارق وسحرها النافذ ، أن تسيطر على عدد كبير من جنرالات فرنسا أبان الحرب العالمية الأولى ... وربما لأنها كانت جاسوسة من نوع خطير - فى زمانها - وربما فريد . فلقد نقلت إلى ألمانيا من أخبار الجيش الفرنسى ، ما لم تكن تستطيعه كتيبة كاملة من الجواسيس ... وربما ... ربما لأنها تركت وراءها مع الثروة الهائلة من المجوهرات التى أغدقها عليها المعجبون والمتنافسون على قلبها من ضباط الجيش الفرنسى ، أسراراً لم يستطع أحد أن يفض أختامها حتى الآن !

اسمها الحقيقى « **مارجريتا جروترود زيللى** » ... راقصة هولندية ، ولدت فى ٧ أغسطس (آب) عام ١٨٧٦ ، وتولت فرقة ضرب النار إعدامها فى أحد ضواحى باريس ، فى فجر يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩١٧ . بعد اكتشاف أمرها ، وبعد أن صنع هذا الاكتشاف دوياً هائلاً فى العالم كله !

هذه هى ماتا هارى ، أشهر جاسوسة فى التاريخ !

ولأنها هولندية ، فلقد عاشت جزءا كبيرا من حياتها فى « باتافيا » عاصمة جزيرة جاوة الأندونيسية ... وباتافيا هذه هى التى أصبح اسمها بعد الاستقلال « جاكارتا » وأصحبت عاصمة لأندونيسيا كلها .

كانت جاوة فى تلك الأيام – شأنها شأن آلاف الجزر الأندونيسية المتناثرة فى المحيط – مستعمرة هولندية ... عاشت فيها ماتاهارى سنوات ليست غامضة تماماً ، كما أنها ليست واضحة بقدر يكفى لمعرفة الكثير من التفاصيل ... غير أن الثابت ، أنها تركت وراءها فى « باتافيا » أو « جاكارتا » عندما غادرتها إلى باريس فى عام ١٩٠٣ ، طفلة لا يتعدى عمرها ثلاثة أعوام ... تركتها فى رعاية رجل أندونيسى كان يعمل ساقياً فى أحد النوادى الليلية ... طفلة أضيفت إلى آلاف الأطفال الذين اختلطت فى عروقهم الدماء الأوروبية مع الدماء الآسيوية ...

وإذا كان هؤلاء الأطفال « المخلطين » ، قد تركوا فى الهند مثلاً ! – علامات وقصص ومآسى تبدو وكأنها جميعاً من نسج الخيال ، فإنه فى كل مكان فى آسيا ، ترك الأوروبيون بصماتهم على الآلاف الذين وجدوا أنفسهم لا منتمين ... فلا هم أوروبيون ، ولا هم آسيويون من أبناء البلاد ... ومعنى هذا باختصار ، أن والد طفلتنا هذه كان آسيوياً ، وبالرغم من ذلك ، فلقد سُجلت الطفلة فى شهادة الميلاد تحت اسم : « باندا ماكلويد » !

غادرت ماتا هارى الجزر الأندونيسية إلى فرنسا عام ١٩٠٣ تاركة طفلتها وراءها فى رعاية هذا الساقى وزوجته ... كانت وقتها فى السابعة والعشرين من عمرها ، تتمتع بجمال يأخذ بعقول أعظم الرجال وقاراً!! ... أكسبتها الشمس الاستوائية لوناً فريداً جعل بشرتها سحرا من نوع خاص ، ولا أحد يعرف – على وجه اليقين – لماذا هاجرت ماتا هارى من جاوة بالرغم من مكانتها هناك كواحدة من بنات الجالية المتميزة المستعمرة ... كما أن أحداً لا يعرف أيضاً لماذا هاجرت إلى باريس بالذات ، ولم تعد إلى هولندا موطنها الأصلى ... غير أن استقراء الأحداث يشى بقصة مشتعلة جمعت بين تلك الراقصة الهولندية البارعة الجمال ، وشاب من أبناء البلاد لازال الغموض يحيط باسمه حتى الآن ... قصة حب كانت ثمرتها تلك الطفلة التى أطلقت عليها اسم « باندا ماكلويد » ... طفلة تنبىء ملامحها بأن الدماء الجاوية تسرى فى عروقها حارة متأججة ... فهل هربت « مارجريتا جروترود زيللى » التى عرفت فى التاريخ باسم « ماتاهارى » من قصة حبها تلك ؟! ... هل كانت قصة الحب هذه هى السبب فى هجرها لطفلتها بعد أن سلمتها إلى ذلك الساقى الأندونيسى وزوجته ... وهل كانت هذه القصة هى السبب الذى جعلها تهاجر إلى فرنسا بدلاً من هولندا حتى لا يصبح من السهل على حبيبها أن يلحق بها هناك ؟!

أسئلة ... عشرات الأسئلة التى لا تزال حائرة حتى الآن . ولا أحد يستطيع الزعم بأنه يعرف الحقيقة كاملة ... لكن الجميع يعرفون أنها هبطت باريس عام

١٩٠٣ كى تتألق فى العاصمة الفرنسية تألقاً دفع باسمها إلى سماء مدينة النور عنوانا لفن رفيع وجمال يأخذ بالألباب !

• • •

فى عام ١٩٠٧ استطاعت المخابرات الألمانية أن تجندها للعمل لحسابها ، وقبل أن تندلع شرارة الحرب العالمية الأولى ، سافرت « ماتاهارى » إلى برلين فى جولة فنية استقبلت فيها استقبالاً حافلاً ... لكن أحداً فى ذلك الوقت لم يكن يدرى أن الغرض الحقيقى وراء تلك الرحلة ، لم يكن هو الفن ، بل كان ستاراً كى تلتحق « ماتا هارى » بما يمكن أن نسميه إحدى مدارس التجسس هناك ... حيث تلقت هناك تدريباً مكثفاً ، عادت بعده إلى باريس ، كى تمارس مهمتها الخطيرة ... تلك المهمة التى قادتها إلى الوقوف ذات فجر فى إحدى ساحات قلعة « فنسين » القريبة من باريس – أمام فرقة ضرب النار بعد أن حوكمت ، وأدينت ، وحكم عليها بالإعدام !!

وعندما اخترقت رصاصات فرقة ضرب النار صدر « ماتاهارى » الجميل ، وسقط رأسها فوق صدرها وقد لفظت أنفاسها الأخيرة ... لم يكن أحد يعرف ، أن آخر ما فعلته ، هو كتابة خطاب تسيل من كلماته الحنان ... كان الخطاب موجهاً إلى ابنتها « باندا » التى تعيش فى جزيرة جاوة ... وبالتالى ، فلم تكن « باندا » تعرف – حتى ذلك الوقت – شيئاً عن أمها ... كل ما كانت تعرفه ، أن « مامى » ترسل لها من أوروبا أجمل الثياب والكثير من النقود ، وأنها تحبها حباً عظيماً تنضح به خطاباتها المنتظمة التى كانت

٤٥٢٤٨

ترسلها إلى والديها الأندونيسيين ، وبعضاً من الصور كانت تشى بجمال الأم الباهر ... تلك الأم التى أعدمت رمياً بالرصاص ، ولم تكن قد تجاوزت الأربعين من عمرها ، إلا بعام وبعض عام !!

• • •

وحتى بلغت باند ماكلويد سن الرابعة عشر ، لم يكن يشغل بالها شيئاً، ولم تكن تعرف شيئاً عن موت أمها أو إعدامها ... حقاً ، كانت تعيش فى أطراف « باتافيا » فى كوخ والدها الأندونيسى وزوجته ... إلا أنها كانت قد تلقت قدراً كافياً من التعليم أهّلها لأن تجد لنفسها مكاناً فى المجتمع كفتاة اختلطت فى عروقها دماء الهولنديين بدماء أبناء جاوة ... ففى المدرسة التى ألتحقت بها ، تعلمت أصول التعامل فى هذا المجتمع الاستعمارى الذى نسيه العالم الآن ... مجتمع كان يتكون من سادة هم الذين يستعمرون البلاد ، وعبيدهم أصحاب البلاد الأصليين ... وفيما بين هؤلاء وأولئك . كان ثمة مكان لهؤلاء المخلطين ، مكان لا لون له ، يقبلهم البعض من هؤلاء أو أولئك ، ويرفضهم الآخرون ... لكنهم فى النهاية كانوا يتمتعون ببعض المميزات الاجتماعية ، خاصة ، أنهم شبوا عن الطوق وقد حباهم الله ، واختلاط الدماء ، بجمال غير مألوف ، جمال تجتمع فيه نضارة الأوروبيون ، بملامح الآسيويين وسحرهم !!

فى أحد أيام ديسمبر عام ١٩١٧ . أى بعد إعدام ماتاهارى بأقل من شهرين . عادت باندا إلى كوخ والديها بالتنبى وهى تضج بالحياة والنشاط ... كانت قادمة لتوها من أحد النوادى المخصصة للأوروبيين بعد أن مارست رياضة التنس التى كانت تعشقها مع

بعض الصديقات والأصدقاء ... وعندما دخلت إلى البيت وجدت والديها الأندونيسيين فى حالة من الحزن وشت بما كانا يعانيان منه .. ولقد حاولت باندا أن تعرف سبب ذلك الحزن دون جدوى ، راحت تمطر والديها بالأسئلة لكنها لم تجد إجابة سوى دموع ذرفتها الأم فى غزارة .

ولم تعرف باندا سر ذلك الحزن إلا بعد عامين كاملين ، عندما أصبحت فى التاسعة عشر من عمرها !

فى ذلك الزمان ... كان سن التاسعة عشر بالنسبة للفتاة الأوروبية هى سن الزواج الطبيعى... وقد عادت باندا فى يوم من أيام عام ١٩١٩ إلى البيت ، كى تزف إلى والديها خبراً سعيداً ، فلقد تقدم لطلب يدها ، السيد « ويلهلم فان ديرين » . وكانت هى قد قبلت العرض... قالت لوالديها :

« أنا واثقة أنى سأكون سعيدة معه ! »

لم يكن الخبر غريباً على الوالدين ... ففى مدينة صغيرة مثل باتافيا يتمتع فيها الاستعماريون البيض بكل المميزات والخبرات ، ويجلسون فوق قمة المجتمع ... تصبح رغباتهم أوامر ، ويصبح الانتساب إليهم نوعاً من الشرف ... ولما كانت باندا تحمل فى عروقها دماء أوروبية ، فإن الأمر بدا طبيعياً إلى حد كبير !

ثم – وعلى الجانب الآخر – لم يكن هناك عيب فى السيد « فان ديرين » ... فلقد كان موظفا كبيراً فى الحكومة الهولندية ، كما كان – بالطبع – على قدر لا بأس به من الثراء ، وهو – بطبيعة الأمور – كان يتمتع بمكانة رفيعة فى مجتمع جاوه ... ولم يكن يعيبه أنه يكبر

باندا بثلاثين عاما ، فلقد كان هذا أيضا ، فى ذلك العصر ، أمرا طبيعياً للغاية ... فلماذا إذن كل هذا الوجوم الذى اجتاح الوالدين عندما زفت إليها الخبر ، وبعد أن أكدت لهما أنها واثقة من أنها سوف تكون سعيدة مع « ويلهلم » !

سألتهما باندا وقد انقبض قلبها ، إن كان يعترضان على زواجها من السيد « فان ديرين » ، وكانت دهشتها بالغة عندما أجابها بالنفى ... ولم يكن أمامها سوى أن تلح فى السؤال :

« إذن ... لماذا كل هذا الوجوم الذى أصابكما ؟! »

ولم يحظ سؤالها بجواب أكثر من نظرات يسيل منها الحزن ، فعادت إلى الإلحاح :

« هل تخفيان عنى سرا ؟! »

وكان الرجل قد حسم أمره قال :

« نعم يا ابنتى ! »

وأردفت الأم :

« مادمت قد اتخذت قراراً بالزواج . فلابد لك أن تعرف كل شىء ! »

• • •

فى ذلك اليوم عرفت باندا سرها الهائل !

راح والداها الأندونيسيين يتحدثان إليها فى بطء من يختار كل كلمة !

عرفت باندا لأول مرة أنها ابنة « ماتاهارى » الجاسوسة التى عملت لحساب الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، كما عرفت أن أمها أعدمت رمياً بالرصاص ، وأن قضاتها قد عاملوها أثناء المحاكمة بمزيد من الاحتقار ... و ... ولكن ..

« ولكن كل من عرفوها أحبوها وتمرغوا تحت قدميها ولها وحباً !! »

هكذا قال الأب ، فأردفت الأم :

« أما هى فلم تحب فى الدنيا أحدا قدر حبها لك !! »

نهض الأب إلى حيث دولاب صغير يضع فيه أشياءه الثمينة ، أخرج منه خطاباً مغلقاً وعاد به إلى باندا التى كانت مصعوقة تماماً ، وهو يقول :

« كان هذا الخطاب هو آخر ما فعلته فى حياتها ، وهو موجه إليك ! »

امتدت يد باندا إلى الخطاب وكانت أصابعها ترتجف ، سرى إلى أذنيها صوت أمها الأندونيسية :

« لقد أحبتك يا باندا أكثر من أى شىء فى الدنيا ، وكنت أنت آخر من فكرت فيه قبل أن يطلقوا عليها النار ! » .

• • •

لم تتحدث باندا عن ذلك اليوم فيما بعد ... ولا يذكر أحد ممن عرفوها أنه سمع منها شيئاً عن أمها ، ولا عن فحوى الخطاب الذى ظلت تحتفظ به حتى آخر يوم فى حياتها ، تنقله معها من مكان إلى

مكان ، يشهد معها تصاريف قدرها المذهل ... وعندما أعدمت هى الأخرى ذات فجر رمياً بالرصاص ، كان هذا الخطاب ضمن تركتها الشديدة الفقر !!

• • •

بعد ذلك اليوم الذى عرفت فيه باندا سرها ، بثلاثة أشهر ، تم زفافها على السيد « ويلهلم فان ديرين » !

ويحكى بعض أصدقاؤها أنها كانت تبدو فى ذلك اليوم ، وقد رصعت رأسها بتاج من زهور جاوة البديعة ، مثل حلم يزف إلى رجل بدا للجميع وكأنه يعيش أعظم وأسعد لحظات حياته !

ورغم فارق السن بين باندا وبين زوجها ، فلقد عاشت معه فى سعادة مقيمة ... انتقلت بعد الزواج إلى بيت من أجمل بيوت باتافيا ... وعاشت عامين تمرغت فيهما فى جنة أنستها كل شىء ... حتى إذا كان يوم ، عاد السيد « فان ديرين » من عمله وهو يرتجف والآلام تمزق صدره ... طلب الرجل من زوجته أن تستدعى الطبيب ، فاستدعت أكبر أطباء باتافيا وأكثرهم حنكة ... لكن الطبيب لم يستطع أن يضع شيئاً ، ففى صباح اليوم التالى مات السيد « ويلهلم فان ديرين » بحمى استوائية لم تكن معروفة فى ذلك الوقت !!

... ...

... ...

ولقد مضى وقت طويل قبل أن تفيق باندا من صدمتها تلك ، وهى ... عندما انتقلت إلى بيتها الجديد كانت قد أحست بالأمان فاستكانت لذراعى زوجها الذى أصبح بالنسبة إليها فى مقام الأب والأم معاً ... ولكن ، ها هى الآن قد عادت وحيدة فى هذ العالم ... لا أب لها تعرفه ، وأمها سر تطويه فى جوانحها بحرص من يخشى آلاف المخاطر !

لم تكن هناك متاعب مالية بطبيعة الحال ، فلقد ترك لها زوجها ثروة لا بأس بها ... ثروة مكنتها من دراسة الآداب والفنون ، ودفعتها الدراسة إلى لقاءات منتظمة مع صفوة المجتمع من فنانين ومفكرين وأدباء وحكام ... شهر بعد آخر بدأت باندا تعود وتتعود على حياتها الجديدة ... وتجمع حولها الأصدقاء والمعجبون وطالبى الود ، لكن اختيارها لم يقع على أحدهم ... أضفى الحزن الدفين فى صدرها على جمالها سحراً وغموضاً أشعلا الحب فى قلوب العديد من الرجال ... وأصبح بيتها صالوناً تجتمع فيه النخبة من مجتمع باتافيا الأرستقراطى ، صالون كانت تناقش فيه الفنون والآداب والسياسة أحياناً ... وبدا وكأن الحياة عادت تفتح لها ذراعيها من جديد ... لولا أن أندلعت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ ... وبعد قليل دخلت اليابان هذه الحرب ، وراحت جيوشها تجتاح المستعمرات الإنجليزية والهولندية فى آسيا ... وما هى إلا شهور ، حتى تغيرت الطبقة الأرستقراطية المالكة فى جاوة ... هرب الهولنديون أمام جحافل اليابانيين الذين احتل جنرالاتهم قمة المجتمع ... وأصبح القنصل اليابانى « ياكيماتو » هو الحاكم الجديد للجزيرة !

• • •

ولم يكن هذا كله يعنى باندا الجميلة فهى - أولاً - لم تكن تهتم بالسياسة أو تحبها ... وهى - ثانياً - كانت أقرب إلى الأندونيسيين منها إلى الهولنديين الذين أصبحوا مطاردين ... كان أهم ما يعنيها فى هذه الدنيا ، أن يظل سرها دفيناً ، وألا يعرف أحد من كانت أمها ... فلقد كانت من الدراية بحيث تعرف معنى أن تكون جاسوسة بالنسبة لليابانيين غلاظ القلوب ، بل أنها كانت تعرف أكثر ، ما الذى يعينه أن تكون ابنة ماتاهارى بالنسبة للأوروبيين ... إن فى هذا قضاء كاملاً عليها وعلى العديد من صداقاتها ...

ومرت سنوات ...

حتى كان يوم من أيام مايو عام ١٩٤٣ .

فى ذلك اليوم كان الجو شديد الحرارة ، تخطت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهجع الناس فى البيوت هربا من الحرارة الاستوائية الملتهبة . عندما دق باب البيت . وهرول الخادم كى يرى من الطارق ... كانت باندا فى غرفتها بالطابق العلوى عندما سمعت صوتاً أجشاً وقحاً يسأل عنها ، ودار حوار لم تتبينه جيداً ولم يكن يعنيها أن تتبينه بين الضيف السمج وبين الخادم الذى جاءها بعد لحظات مهرولاً :

« عفواً سيدتى ولكن ... ... »

« ماذا هنالك يا على ؟! »

« ثمة زائر يصر على لقائك يا سيدتى ! »

« فى مثل هذا الوقت !! »

« فى مثل هذا الوقت !! »

« ما اسمه؟! »

« يقول أن اسمه زيللى !!! »

وسقط قلب باندا بين ضلوعها ... إن اسم زيللى هو اسم عائلة أمها ... فهل هناك من يعرف سرها ؟!

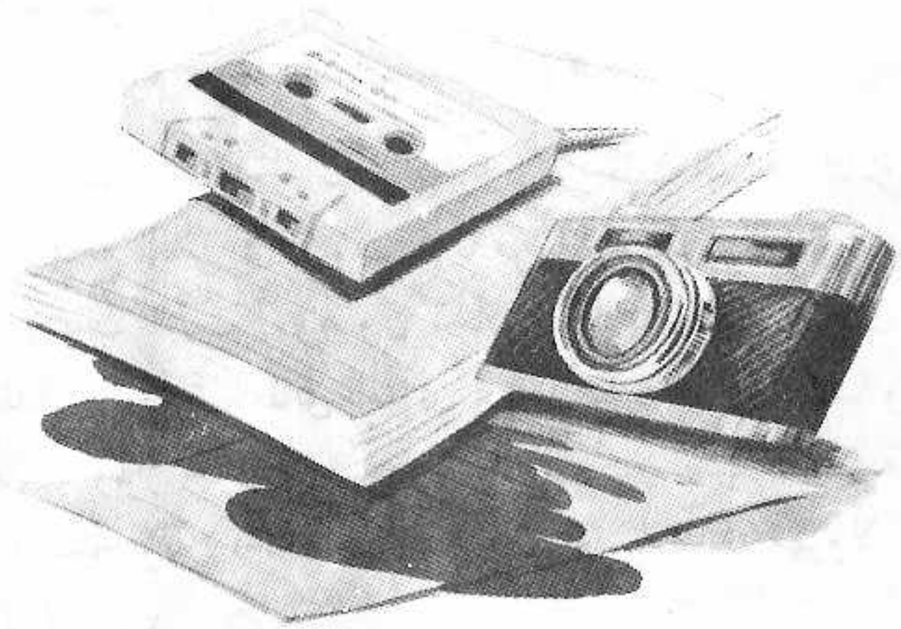

٢

فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو عام ١٩٤٣ . وقبل أن يأتى إلى بيت باندا ماكلويد ذلك الزائر الغريب... كانت هى تشعر بكثير من القلق وربما الاكتئاب أيضا ... فمنذ أن احتل اليابانيون الجزر الأندونيسية ، وارتفع علمهم يرفرف فوق باتافيا بدلاً من العلم الهولندى ... تقلص صالون باندا الأدبى والفنى تقلصاً واضحا فى انتظار ماسوف تسفر عنه الأيام!... كان جزءاً كبيراً من الذين يترددون على صالونها من الهولنديين الذين أصبحوا الآن مطاردين ... وإذا كان هؤلاء قد تعودوا النظر إلى المخلطين – أمثال باندا ماكلويد – نظرة تعال واحتقار ... فلقد استطاعت بكياستها وبعد نظرها ، ثم بزواجها من هولندى محترم ، أن تكسب لنفسها مكانة خاصةفى المجتمع جعلتها تتمتع بما كانت تتمتع به الطبقة الحاكمة نفسها ... أما الآن فإن الوضع قد اختلف كثيراً ... ذلك أن المستعمرين الجدد وجدوا – كالعادة – منذ الأيام الأولى لوصولهم إلى باتافيا ، من يتعاون معهم ، وجدوا من يشى

بما كان قائماً فى الجزيرة قبل أن تطأ أقدامهم أرضها ... فما الذى قاله هؤلاء عنها ؟! ... وكيف كان البعض ينظرون إليها فى تلك الأيام ؟!

كان هذا وحده كافياً لأن يبعث بالقلق إلى نفس باندا خاصة وأن اليابانيين عاملوا أعداءهم بقسوة كانت حديث المدينة ... وبالرغم من ذلك لم يقف الأمر عند هذا الحد ، ففى ذلك اليوم من أيام مايو عام ١٩٤٣ ، أصدر الحاكم العسكرى اليابانى مرسوماً صارما يحرم فيه اختلاط الجنود اليابانيون بالفتيات المخلطات فى أندونيسيا !!

وهكذا وجدت باندا نفسها فى موقف لا تحسد عليه ، خاصة وأن اليابانيين راحوا يشجعون جنودهم على الاختلاظ بالفتيات الأندونيسيات تحت زعم أنهم جميعاً آسيويون . وأن اليابان إنما اجتاحت الجزر الاندونيسية كى تحررها من المستعمر الاوروبى الدخيل ... ولم يكن مفيداً أن تعرف باندا أن هذا الزعم ليس سوى ستار يخفى وراءه رغبة اليابانيين فى الحفاظ على الأيدى العاملة الأندونيسية فى مزارع المطاط الشاسعة ، وختى تبقى العجلة الاقتصادية فى الدوران ، والمصانع فى الإنتاج .

وعلى كل ، فلقد سرت إشاعة فى باتافيا تقول : أن الحاكم العسكرى اليابانى لديه قناعة بأن الفتيات المخلطات – أمثال باندا – من الممكن أن يكون ولاؤهن للهولنديين الذين تجرى دماؤهم فى عروقهن ... وبالتالى . من الممكن أن يصبحن عيوناً للهولنديين على اليابانيين ...

كان معنى هذا المرسوم الذى صدر ، أن باندا سوف تصبح ، بالنسبة للسادة الجدد فى الجزيرة ، شبه منبوذة ... وكان معناه أيضاً أن عليها أن تجد طريقاً جديداً للحياة فى ظل العلم اليابانى ... أو ... أو أن تفكر فى الهرب من جاوة ... ولكن إلى أين ؟! ... و ... وقبل هذا ، كيف ؟!

وهكذا ، وعندما شارفت الساعة على الثالثة بعد الظهر ، واشتدت درجة الحرارة وخلت شوارع باتافيا من المارة وران على المدينة سكون آسن ... كانت باندا تشعر مع الاكتئاب بالاختناق والخوف ... أحست أنها بحاجة إلى قليل من شراب الأرز المنعش ، ذلك الشراب الوطنى الذى كان قد شح فى تلك الأيام وأصبح العثور على القليل منه يستلزم مغامرات غير مضمونة العواقب فى السوق السوداء !

ما أن أعدت كأسها حتى وصلت إلى سمعها تلك الدقات الغليظة على الباب الخارجى ، كما سمعت حفيف أقدام الخادم على أرض البهو ثم صوت الباب وهو يفتح ثم صوت الزائر السمج وهو يسأل :

« أليس هذا بيت السيدة باندا ماكلويد » ؟!

و ... ولم تتبين باندا ما دار من حوار بين الضيف والخادم ... غير أنها ، عندما أخبرها الخادم باسم « زيللى » ، أدركت أنها مجبرة على أن تراه ... فطلبت من « على » – هذا هو اسم الخادم – أن يقص عليها ما حدث بالضبط .

تردد الخادم خجلاً ، فهتفت فى صوت خفيض :

« مهما كانت تصرفاته وألفاظه ، فلابد أن أعرفها قبل أن ألتقى به يا على ! » ..

وقال لها على أنه ما أن فتح الباب حتى خطا هذا الرجل الأوروبى إلى الداخل وهو يزيحه من طريقه بصلف ، وعندما حاول الخادم أن يحتج ، زمجر ذلك الأوربى قائلاً :

« أريد أن أقابل صاحبة هذا البيت وعليك أن تخبرها بالأمر ! »

وطلبت باندا من « على » أن يخبر الزائر أنها فى الطريق إليه ... وفى الدقائق التى استغرقتها فى استبدال ملابسها . كان عقلها يعمل بسرعة ... كانت هناك مجموعة من الحقائق لا سبيل إلى الفرار منها ، أولها : أن هذا الزائر يزعم أنه قريبها . وكان معنى هذا ، أنه يعلم سرها ... وثانيها : أن تصرف السيد « زيللى » هذا ينبىء عن معرفة بحقيقة أمها ، وأنه قد جاء للتهديد وليس للمساعدة ... أما الحقيقة الثالثة : فهى أنها ليست فى مركز يسمح لها بالمساومة أو المناجزة ، بأن عليها ، مهما كان الأمر ، أن تسوس هذا الرجل الذى يزعم أنه قريبها !

• • •

انتهت باندا من ارتداء رداء من الحرير الصينى الفاخر ، غادرت غرفتها وراحت تهبط الدرج الرخامى إلى الطابق الأول ... وهناك ، وجدت أمها رجلا سميناً أحمر الوجه أزرق العينين خفيف الشعر يرتدى بذلة بيضاء ورباط عنق محشور فى ياقة القميص حشراً ... كان الزائر جالسا فوق مقعد وقد مدد ساقيه على مقعد

آخر وهو يحرك قبعته أمام وجهه استجلاباً للهواء ... وكان وجهه ينضح بالعرق .

عندما وصلت إليه باندا لم يكلف نفسه عناء النهوض ، بل راح يرميها بنظرات متفحصة ... ما أن وصلت إلى الصالون الذى جلس فيه حتى سألته فى جفاء :

« ماذا تريد ؟! »

« إن اسمى زيللى !! »

دق قلبها بعنف حتى ظنت أنه سوف ينفجر ... إن أسلوبه فى الحديث يشى بأنه يعرف كل شىء ، بل يشى بتهديد ساخر غير مستتر ... وبقدر ما أسعفها ذكاؤها فى تلك اللحظة قالت :

« وهل يعنى هذا شيئاً بالنسبة لى ؟! »

شملها الرجل بنظرة مستهينة ساخرة وهو يغمغم :

« أنه يعنى أننا أقارب ! »

سألته ببرود حاولت به أن تغطى خوفاً كان يغلى فى صدرها :

« وماذا إذا كنا كذلك ؟! »

هنا ، نهض زيللى من مقعده متقدماً نحوها :

« ألا ترين أن هذا يعنى شيئاً ؟! »

« ماذا تريد بالضبط ؟! »

زمجر الرجل بغتة :

« كانت أمك عمتى ؟! »

« أمى ؟! »

داعب ذقنها بطرف أصبعه مغمغماً :

« ماتا هارى يا باندا ! »

وترنحت باندا ، ها هو الجرح يغفرناه متدفقاً بالألم والخوف والرعب وماذا سوف يحدث وقد انكشف سرها ؟! ... ولابد أن وجهها قد شحب كثيراً فلقد ابتسم الرجل ابتسامة من أدرك أنه أصاب الهدف تماماً ، وعاد يقول :

« ألا يجب أن ترحبى بواحد من أقاربك ؟! »

أدركت باندا فى تلك اللحظة كم كانت تنوء بسرها هذا طوال السنوات الماضية ، أشارت إلى مقعد آخر وهى تقول :

« تفضل ! »

تركته وسارت إلى حيث راحت تعد له كأساً من شراب الأرز ، عادت بالكأس إليه وقد وضعت فيه مع الشراب بعضاً من قطع الثلج فتناوله منها وراح ينظر إليه كأنما هو يغازله ... جلست على مقعد مقابل وكان يقول :

« فى مثل تلك الأمور يصبح الوصول إلى الهدف من أقصر الطرق هو أسلم السبل ! »

« ما الذى تريده بالضبط ؟! »

« لكى نحسم كل شىء أحب أن أقول لك بوضوح أن « الكمبتاى » - جهاز المخابرات اليابانى - يعرف عنك كل شىء !! »

« كل شىء ؟! » .

« يعرفون على سبيل المثال أن أمك هى ماحريتا جروترود زيللى ، وأنها هى بعينها الجاسوسة الشهيرة ماتا هارى ، وأنها قد تجسست لحساب الألمان فى فرنسا أثناء الحرب الماضية ! »

توقف الرجل عن الحديث وكان يلهث ، رشف من شراب الأرز رشفة وكان قلبها يدق بعنف ورأسها تدور بينما كان زيللى يغازل كأسه ويرشف منه رشفات قليلة وكأنما هو يترك لها الفرصة كى تستوعب كل هذا الذى قاله ... ولكن : ماذا يريد ؟!

وكأنما كان يقرأ أفكارها قال :

« إنهم هم الذين أرسلونى إليك ! »

« وماذا يريدون منى ؟! »

« أن تعملى لحسابهم ! »

لم تفهم باندا ما الذى كان يعنيه بجملته ... حقيقة لم تفهم أو فلتقل أنها لم تدرك معنى الجملة إدراكاً كافياً ... ازداد اضطرابها وهى تهتف :

« ما الذى تعنيه بهذا ؟! » .

« أن تكونى عميلة لهم فى جهاز مخابراتهم ! » .

هكذا بوضوح ودون لف أو دوران وبقسوة بالغة ... ولكن ...

« **ولكنى لا أحب اليابانيين ! »**

« **ولا أنا !! »**

« **ولن أعمل لحسابهم ! »**

« **ولكنك مضطرة ! »**

« **إنك تنسى شيئاً هاماً ! »**

« **ما هو ؟! »**

« **إننى سليلة دماء مختلطة ! »**

« **وما الذى يعنيه هذا ؟! »**

« **ألم تسمع عن المرسوم الذى أصدره الحاكم العسكرى ؟! »**

مد لها يده بكأسه الفارغ كمن يطلب كأساً آخر وهو يقول :

« **لا عليك ، أن الحاكم العسكرى رجل معتوه ! »** .

نهضت كى تعد له كأساً آخر دون أن تقطع حبل الحوار ، قالت :

« **لكن المرسوم واضح تمام الوضوح ! »**

« **ولسوف تكونين يا باندا أول من يخرق هذا المرسوم ! »**

همت بالحديث فأردف وهو يجول بعينيه فى المكان كأنما يتفحصه :

« **هذا وعد ! »** .

عادت إليه بالكأس فراح يغازله بالنظرات حيناً من الوقت ثم رشف منه رشفة قال بعدها :

« **سوف أعطيك - باذن خاص - مهلة لأربع وعشرين ساعة كى تفكرى فى الأمر ! »** .

ألقى بما تبقى فى الكأس فى جوفه ثم أعاده إلى المائدة ناهضاً وهو يقول :

« ولو أنى أرى أن لا شىء ، يستحق التفكير ! »

• • •

نهضت باندا لنهوضه لكنها لم تتفوه بحرف . سار نحو الباب مغمغماً :

« **لقد تجسست أمك لحساب الألمان ، ولست أرى فى هذا مايضيرك أمام اليابانيين فهم حلفاؤهم ... ولكنى فقط أتساءل : ما الذى سيكون عليه موقفك لمجرد إعلان أنك ابنة ماتا هارى .. ليس فقط لأنك مخلطة ، ولكن بالنسبة للآخرين ؟! »**

كان قد وصل إلى الباب فالتفت نحوها . ثم وضع قبعته فوق رأسه ، وغادر البيت !

وكانت باندا الآن مثل ورقة فى مهب الريح عاتية ... لم تكن تدرى إلى أين تلجأ ، أو ماذا تفعل ... لم تكن قد فهمت ، حتى تلك اللحظة ، معنى ذلك الحديث الذى سمعته من « زيللى » !

ما هى إلا أسابيع قليلة حتى عادت الأضواء تتلألأ فى بيت باندا ماكلويد من جديد ... وعاد صالونها يضم صفوة المجتمع ... أدركت بعد انصراف « زيللى » أن الأمر ليس فى حاجة إلى تفكير بالفعل ، وأنه ليس أمامها - بأى معنى من المعانى - مجال للاختيار ... ببساطة . كان يكفى أن ترفض أو تعتذر أو تتعلل حتى تخسر كل شىء ، ويلقى بها فى أحد معسكرات الاعتقال ، ويصبح مصيرها بعد ذلك فى يد قدر عابث !

... ...

... ...

وعندما جلست بعد أيام مع مندوب « الكمبتاى » سألته عما يريدون منها بالتحديد ... كان الشاب الذى جلس إليها يذوب رقة وأدباً وخجلاً فى نفس الوقت ، قال فى هدوء :

« إننا لا نريد إيذاء أحد على الإطلاق ، خاصة إذا ما كان صديقاً لك .... كل ما فى الأمر أننا فى حالة حرب ، وبدلاً من الضرب العشوائى هنا أو هناك تأميناً لجيشنا ... فإن كل ما نبغيه منك إذا ما شككت فى أى شخص أو أردت حماية عزيز عليك يتصرف برعونة . أن تبلغينا أن هذا الشخص يستحق الانتباه... ولسوف نتحرى الأمر بدقة ... فلو ثبت عليه شىء ، فلن يحدث له أكثر من وضعه فى أحد معسكرات الاعتقال حتى تنتهى هذه الحرب اللعينة ! »

همت باندا بالسؤال لكنه أردف موضحاً :

« سيدتى ... لسنا وحدنا الذين نفعل هذا ، وأنت تعرفين أكثر من غيرك ، ما الذى كان يفعله الهولنديون بأبناء جلدتك ، حتى بدون حرب ! »

و ... و ...

ولم تكن باندا ماكلويد فى ذلك الوقت تعرف ، أن هذا التبسيط الهل ، ليس سوى شركاً ينصب لها كى تدفع بالكثيرين من الذين أحبتهم ورغبت فى حمايتهم إلى مصير غامض ورهيب ... ومرة أخرى ، هكذا قالت فيما بعد ، لم يكن أمامها سوى القبول والرضوخ ... إن نظرة واحدة تديرها فيما كان يجرى فى باتافيا فى تلك الأيام ، كانت كفيلة لبث الرعب فى قلبها !

فى تلك الأيام الغريبة ، كان الجوع يعصف بأهالى باتافيا من أبناء الأرض الأصليين ، وكلما احتدمت الحرب كلما شحت المؤن حتى أصبح من المتعذر على المواطن الأندونيسى أن يجد قوت يومه ... ويوماً بعد يوم كانت قبضة اليابانيين تشتد على كل شىء . وكانت باندا تسمع من القصص ما كان يبعث بالرعب إلى قلبها ، بالرغم من أنها كانت تعيش حياة ناعمة لا حرمان فيها ولا حاجة !!

عادت الأضواء إذن إلى الصالون الذى أصبح يضم عدداً لا بأس به من الجنرالات اليابانيون ورجال الصناعة وملاك المزارع وزوجاتهم وعدد لا بأس به من الدبلوماسيين ... ولقد وجد

الجميع فى صالون باندا ، رئة يتنفسون بها فى مجتمع تجثم على صدره قوات احتلال بالغة القسوة ، واقتصاد حرب يكاد أن يزهق الأنفاس .

غير أن الأحاديث والمناقشات فى الصالون الجديد ، لم تعد تتطرق – كما كان الحال فى الصالون الأول – إلى الفن والأدب ... بل أصبحت السياسة هى العنصر الغالب فى المناقشات ، خاصة إذا ما كان بعض الضيوف من موظفى وزارة الخارجية الألمانية الذين كانوا عادة ما يصلون إلى جاوة عن طريق الغواصات .

وبدأت الأسرار تتناثر أمام باندا وبين يديها .

يوماً بعد يوم كانت الثقة تزداد فيها . خاصة وأنها كانت عادة ما تعزف عن الحديث فى السياسة ، وتنغمس فى الحديث حول الفن والأدب مع نخبة من الأصدقاء الذين انضموا إلى صالونها وتلاقت مشاربهم مع مشاربها ..

من هذه النخبة الجديدة كان السيد « جالاتى » السويسرى المثقف البدين ، ورجل الأعمال الذى أصبح من أقرب الناس إليها ... كما كان هناك البروفسور « هايموس » عالم الآثار اليونانى الذى كانت كل اهتماماته محصورة فى الحفريات التى كان يقوم بها فى أنحاء الجزيرة بحثاً عن تاريخ المنطقة ، والذى كان يمتعها بالحديث عن اكتشافاته التى تمت ، أو التى يأمل فى الوصول إليها ... كما كان هناك القنصل الدانمركى « لندكويست » الذى اعترف لها ذات مساء وقد توطدت العلاقة بينهما أنه يستغل قنصليته فى إرسال معلومات عن الجيش اليابانى

إلى البريطانيين ... ثم صديقها الفنزويلى خفيف الظل المرح الدائم الضحك « هيرماتو وولف » ... كما كان هناك قائد حركة المقاومة السرية الأندونيسية التى عرفت باسم « ياركنج » والذى اتخذ من صالونها ستاراً يتظاهر فيه بالولاء لليابانيين فى حين أن رجاله كانوا منتشرين فى المستنقعات بطول شواطىء جاوه .

وقبل كل هؤلاء ، كان هناك الكولونيل عبدالله ، قائد الحرس الوطنى الأندونيسى الذى أنشأه اليابانيون للحفاظ على الأمن الداخلى ... والذى بالرغم من موقفه هذا الموالى لليابانيين ، كان يحتل مكانه خاصة فى قلب باندا التى وقعت – مرة منذ وفاة زوجها السيد فان ديرين – فى غرامه وأحبته وذاقت فى حبه أحلى ما تذوقه امرأة !

كان الكولونيل عبدالله شاباً وسيماً فارع الطول جذاباً ، وكان قد اشتهر فى باتافيا بأنه يسحر الفتيات ... وبالرغم من أن باندا كانت تكبره باثنتى عشر سنة ، إلا أنه ، هو الآخر ، وقع فى حبها .

ولقد ترددت باندا طويلاً قبل أن تعلن هذا الحب ... فلقد كانت علاقتها مع زوجها الراحل ، لا تزال تنشر عطرها فيما حولها ، كانت علاقة مشوبة بالكثير من الود والاحترام ، ولقد وجدت فيه باندا تعويضا عن الأب المجهول ! ... أما الآن ، وقد تخطت الأربعين من عمرها ، فلم تكن فى حاجة إلى أب ، بقدر ما كانت فى حاجة إلى العاطفة !

ولا أحد يدرى كم طال تردد باندا أمام عبدالله الذى كان يواظب

على حضور صالونها ، لكن المؤكد أن الحب أخيراً فرض نفسه وتفجر فى قلبها كالبركان ... وكان أكثر ما أسعدها فى عبدالله أنه كان « مسلماً » عفيفاً ، تدله هو الآخر فى حبها فأعطاها نفسه ، وكادت علاقتهما تصل إلى ذروة الكمال ، لولا علامة الاستفهام تلك التى ظلت معلقة فيما بينهما !!

كانت باندا كثيراً ما تتساءل :

كيف يتعاون مثل هذا الشاب القوى الثابت الوجدان مع اليابانيين لحفظ الأمن لهم فى بلاده ؟!

ولقد تجرأت ذات ليلة أخذ فى الحب بمجامعها فسألته ... وجاءها جوابه بالغ الغموض ، بالغ الإقناع فى نفس الوقت :

« إنها مجرد وظيفة يا باندا ! ... مجرد وظيفة !! »

ومن ناحيتها ، فلقد حرصت باندا ، ووافقها عبدالله ، على أن تظل علاقتهما سراً لا يعرفه أحد سواهما ، وعلى ذلك ، فهى لم تذكر كلمة عنه للكومبتاى ، الذى كان مندوبهم عادة ما يزورها أو يرسل فى طلبها ، ثم يمطرها بالأسئلة !

الغريب فى الأمر ، أنها لم تعد ترى قريبها « زيللى » هذا بعد ذلك . ومن ناحيتها لم تهتم بأن تسأل عن رجال الكومبتاى ، وبدا لها ، وكأنهم لا يعرفون عنه شيئاً !!

وكما حدث مع أمها من قبل ، وجدت باندا نفسها تسبح فى عطور باريس التى كانت تأتيها عن طريق الغواصات مع الأحذية

الإيطالية الفاخرة . وامتلأ بيتها بكل ما تصبو إليه نفسها ، وأصبحت فوق كل هذا ، محط أنظار الرجال ذوى المكانة الرفيعة فى المجتمع !

حتى كانت ليلة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ .

ليلة خطت فيها باندا ، دون إرادة منها ، الخطوات الأولى فى مستقبل سوف تقودها أيامه ، إلى الجحيم نفسه ... وكانت ليلة مروعة !!

٣

من العسير أن نقول أن باندا ماكلويد قد خدعت بوعود الكومبتاى ... لكنه من المنطقى أن نقول أنها أرادت أن تصدق وعودهم... خاصة ، وأن أكثر الذين تدلهوا فى حبها فى الفترة الأخيرة ، كان هو القنصل اليابانى فى الجزيرة ... السيد « ياكيماتو » !

ليس هذا فقط ، فلقد كانت غالبية الرجال الذين طلبت من الكومبتاى الاهتمام بأمرهم ، من ذوى المكانة الخاصة والسمعة الطيبة ... وكانت تعرف عنهم بعدهم تماماً عن لعبة السياسة ، ولم يخطر ببالها من بعيد أو من قريب ، أن تكون لهم علاقة ما ، أية علاقة ، بعالم التجسس !

كما كان من المنطقى أيضاً . وقد وجدت نفسها محاطة بكوكبة من الرجال الأوربيون والآسيويون ذوى المكانة والقدرات الخاصة . والذين كانوا يتسابقون ، كل بأسلوبه ، للفوز بقلبها ... أن تشعر أن اليابانيين لابد وأن يحترموا كلمتهم معها !

أكثر من كانت تخاف عليه هو الكولونيل عبدالله . ذلك الأندونيسى الذى فتنها حباً وشجاعة وغموضاً فى نفس الوقت ،

والذى وافقها فور مصارحتها له بحبها ، ومصارحته لها بحبه ... أن يظل غرامها سراً بينهما لا يعرفه حتى أقرب المقربين إليهما ... ذلك أنهما بالقطع كانا موقنين أن القنصل اليابانى المهذب ، يملك القدرة على التنكيل بأى مواطن أندونيسى مهما كانت مكانته ، وحتى ولو كان هو قائد الحرس الوطنى الموالى للسلطة اليابانية فى الجزيرة ... ذلك أن أبسط عقاب كان من الممكن أن ينزل بالكولونيل ، هو إصدار الأوامر إليه بالانتقال من جاوه إلى أية جزيرة أخرى نائية ، من آلاف الجزر التى تكون أندونيسياً !

وللحقيقة ... فلقد كان السيد ياكيماتو ، رغم قامته القصيرة ، أنيقاً إناقة نافذة التأثير ... كما أنه كان فى نفس الوقت وسيماً هادىء الصوت مهذب التصرفات ...

ولذلك ... فلقد دهشت باندا فى تلك الليلة المروعة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ ، عندما انصرف جميع الضيوف ، وبقى ياكيماتو وحده معها !

دهشت ... لأنها كانت المرة الأولى التى يفعل فيها سعادة القنصل هذا .

وخافت ... لأنها أدركت أن السيد ياكيماتو قد بقى خصيصاً كى يزف إليها نبأ لا تريد ، بالقطع ، أن تعرفه أو تسمعه .. أو غزلا كانت فى غنى عنه !

عندما طالت جلسة القنصل بعد انصراف الضيوف ، أمرت باندا الخدم بأن ينصرفوا ، فانصرفوا ... وراحت ، وقد طال صمت

الرجل ، تبحث عن موضوع تتجاذب به أطراف الحديث معه ... وكانت طبيعياً أن تتذكر بعض الذين أمّوا صالونها فى تلك الليلة ... فلقد كان من بينهم عدد لا بأس به من الدبلوماسيين الألمان الذين وصلوا حديثاً إلى جاوة فى إحدى الغواصات الألمانية ... ولقد تذكرت ، وهى جالسة مع ياكيماتو ، أحدهم ... وكان يتميز بالصلف والعجرفة ، فابتسمت قائلة :

« **أن الألمان يشعرون دائماً أنهم فوق الآخرين !** »

وجاءها صوت القنصل خافتاً مؤدباً مهذباً :

« **إن ما تقوليه صحيح تماماً يا سيدتى !** »

وبينما هى تبحث فى ذهنها عن شىء تقوله ، كان هو يردف زافراً :

« **ومن العسير أن يجلس الإنسان معهم دون الحديث عن تقسيم العالم !** »

كانت – على كل الأحوال – قد أصبحت مدربة بعض الشىء فغمغمت :

« **لكنهم – أبداً – لا يصرحون بما فى نفوسهم !** »

« **وهذا صحيح أيضاً ... ولقد سمعت هذا الرأى من السيد جالاتى شخصياً !** »

وتذكرت جالاتى !

تذكرت باندا أن صديقها السويسرى هذا قد اختفى من صالونها

منذ أسبوعين دون أن تعرف عنه شيئاً ، فهتفت وقد وجدت مادة للحديث :

« جالاتى ... إنى لم أره منذ أسبوعين ! »

علت وجه القنصل ابتسامة خفق لها قلب باندا فأردفت :

« وقد حاولت الاتصال به فى البيت وفى شركته الصناعية ، لكنى لم أعثر عليه ! »

ظلت الابتسامة معلقة على وجه القنصل فأدركت باندا أن فى الأمر شيئاً .. ألحت وقد اعتراها القلق :

« هل تعرف عنه شيئاً يا سيدى ؟! »

« لقد سمحنا له بالسفر على السفينة تانجيرانج ! »

هتفت باندا فى لوعة :

« ولكنكم أغرقتم تانجيرانج فى عرض المحيط ! »

ساد الصمت لثوانى كانت باندا فيها ترتجف لاهثة الأنفاس ، غمغم القنصل بعدها :

« وعلى كل الأحوال ، فقد كان لديه الوقت الكافى قبل السفر ، كى يعترف بمكان محطته اللاسلكية السرية التى كان يتصل من خلالها بالبريطانيين ! »

شحبت باندا شحوباً عظيماً وغامت عيناها وهى تحملق فى القنصل ياكيماتو ... كانت هى التى أبلغت عن جالاتى كنوع من

المراوغة . فلقد كانت موقنة أن صديقها السويسرى ذاك لا علاقة له بمثل هذه الأمور !

• • •

وقع الخبر على باندا ماكلويد وقوع الصاعقة ، هى لم تكن تخدع نفسها ولم تكن غافلة عما اقترفته ... فهى تعرف الآن ، والآن فقط ، أن كل هؤلاء الذين حذرت اليابانيين منهم قد لقوا حتفهم ... وكان من الصعب عليها أن تتصور ذلك ... من الصعب عليها أن ترسل أصدقائها إلى الموت بكلمة منها !

لاحظ السيد ياكيماتو شحوب وجهها فأدرك ما كانت تعانى منه ، تململ فى جلسته وتمتم معتذراً إن كان قد سبب لها بعض الألم ، كان حديثه مهذباً كالعادة ، لكنها أدركت أن حروف كلماته كانت كوخز السيوف اليابانية الشهيرة ... حاولت أن تسترد نفسها فاعتذرت بقولها أن حفلات الاستقبال أصبحت تصيبها بإرهاق شديد ... ابتسم متململاً فى مكانه وهو يقول :

« إذن ، فعل أن أتركك حتى تنالين قسطاً من الراحة ! »

أدركت على الفور أنها وقعت فى خطأ فادح ... إن حزنها على جالاتى يعنى أنها متعاطفة معه . وإذا كانوا قد اكتشفوا محطة الإرسال التى كان يتصل بواسطتها بالبريطانيين ، فهل يجب أن تحزن على جاسوس كان ينقل أخبارهم وأسرارهم إلى الأعداء ؟!

حاولت ملاطفة فابتسمت مجاملة :

« **لا عليك سيدى القنصل ... أنت تعرف أنى أجد الراحة إلى جوارك !** »

وتأكيداً لما قالته ، نهضت والرعب يجتاحها احتياجاً ، كى تعد له كأساً من الساكى اليابانى الذى يفضله ... عادت إليه بالكأس وكان فى استقبالها وبين يديه صندوقاً متوسط الحجم غلف بالمخمل الأسود ... قدمت له كأسه فقدم لها الصندوق متمتماً :

« **هذه هدية متواضعة أردت أن أقدمها لك على انفراد !** »

الآن أدركت لم بقى القنصل إلى ما بعد انصراف الضيوف ، كان يريد أن يدفع الثمن ، ولم يكن هذا ممكناً أمام الآخرين ... مدت يدها إلى الصندوق الفاخر وكانت تقول لنفسها : إن هذا بالتأكيد هو ثمن الخيانة ... ما أن فتحت الصندوق حتى شهقت إعجاباً ودهشة ... كان ثمة عقداً من الماس تتلألأ حباته تحت أضواء البهو المتناثرة ، هتفت غير مصدقة :

« **إنه يساوى ثروة !** » .

« **هذا صحيح ، لكنها لا تعادل ... ...** »

وأمسك ياكيماتو عن الحديث ، ارتجفت أهدابه وهو يرميها بنظرة ولهه ... وكانت باندا ماكلويد فى تلك اللحظة تتساءل عن بقية جملته المبتورة ... هل هى ثروة لا تعادل حبه لها ، أم أنها ثروة لا تعادل خدماتها لهم ؟!

سرى صوته إليها من جديد :

« **هل تسعدينى برؤيته وهو يزين جيدك ؟!** »

سارت نحو المرآة وكانت تترنح بالفعل ، أحست بنفسها تسبح فى الفضاء وكأنها تسير فوق سطح سفينة تتلاعب بها الأمواج ، بذلت جهداً عظيماً كى تتمالك نفسها وتقف أمام المرآة وتضع العقد حول عنقها فإذا هى تنظر إلى تحفة فنية وثروة حقيقية تتلألأ فوق صدرها ... التفتت إليه وقالت :

« **كيف أشكرك ؟!** »

« **بأن تجعلينى أظن أنك سعيدة بالهدية !** »

كان جوابه صارخاً فى وضوحه ، أحست لوهلة ، أنه ربما كان ضحية مثلما هى ضحية !!

« **لقد سعدت بها حقاً !** »

غمغم السيد ياكيماتو موغلاً فى الوضوح أكثر :

« **ونحن على استعداد لأن نقدم لك كل ما يسعدك !** »

قال هذا ، ثم راح يدور بعينيه فى المكان مسترسلاً :

« **وعلى كل** ... فإن لديك منزل جميل ، وقدر كاف من المال ... ونحن حريصون على أن نرسل لك كل ما تحتاجينه من مؤن ... فوق أننا لا ننسى أصدقاءنا أبداً !!! »

قال هذا وهو ينحنى احتراماً :

« **والآن ... هل تأذنين لى بالانصراف ؟!** »

• • •

لا تدرى باندا ماكلويد لم أحست فى كلمات السيد ياكيماتو

الأخيرة بتلميحات تحمل الكثير مما يريد قوله ولكنه لا يستطيع ... ظلت جامدة فى مكانها حتى غادر البيت ... وما أن اطمأنت إلى أنها أصبحت وحيدة حتى تركت لدموعها العنان ... لم يكن جالاتى وحده هو سبب حزنها وبكائها . كان هناك الكثيرون الذى اختفوا وكانت تظن أنهم غابوا لبضعة أسابيع أو بضعة أشهر فى مهام هنا أو هناك فى القارة الشاسعة أو فى واحدة من آلاف الجزر الأندونيسية المتناثرة فى المحيط ... ولابد لها الآن أن تواجه كل شىء بوضوح ، دون لف أو دوران ... لقد خانت أصدقاءها ، وكل الذين وضعوا ثقتهم فيها وائتمنوها على أسرارهم ... فهل تستحق من كانت مثلها أن تعيش !

فى بطء راحت تصعد الدرج الرخامى إلى الطابق العلوى ... دلفت إلى غرفة نومها وكانت يداها تعملان فى قفل العقد حتى خلعته ... تركته يسقط من يدها فوق الأرض ووطأته بقدمها وسارت إلى دولاب ملابسها ... فتحت دلفة معينة فيه وامتدت يدها كى تخرج زجاجة صغيرة كانت تحوى عدداً لا بأس به من الحبوب المنومة ... فلقد كان رأيها – فى تلك الدقائق التى انقضت منذ خرج القنصل اليابانى ، وحتى وصلت إلى غرفتها – وقد استقر على أن تنتحر !!!

... ...

... ...

قالت باندا ماكلويد فيما بعد ، أنها عندما تناولت الأقراص المنومة ، كانت تريد الانتقام من نفسها ، فلقد رأت أنها لم تعد

قادرة ، بعد أن عرفت ما عرفت ، على العيش مع تلك المرأة التى **هوت إلى حضيض الخيانة من أجل حياة منعمة لا ينقصها شىء ... فى** الوقت الذى كان الشعب الذى تنتمى إليه ، والذى منه كان أبوها ، والذى تجرى دماؤه فى عروقها ... لا يكاد يجد قوت يومه !

• • •

بالرغم من أن عدد الأقراص التى تناولتها باندا فى تلك الليلة كان كافياً لأن يقتل ربع دستة من الرجال ، إلا أنها لم تمت ... بل ، لم يشعر أحد بأنها أقدمت على الانتحار ... كل ما حدث أنها ظلت نائمة لساعات لم تدر كم طالت بها ، وعندما فتحت عينيها ، وللوهلة الأولى ، أدركت أن محاولتها قد فشلت ، وأنها لم تمت بعد ... فقط ، ذلك الحريق الذى كان مشتعلاً فى حلقها ورغبتها الشديدة فى الماء ... نهضت من فراشها لكن ساقاها لم تقويا على حملها ... جذبت حبل الجرس المدلى إلى جوار الفراش ، فجاءتها وصيفتها مهرولة وكان القلق قد استبد بها لطول الساعات التى ظلت سيدتها نائمة فيها ... ولقد حاولت تلك السيدة الأندونيسية طيلة النهار أن توقظ سيدتها دون جدوى ... ولما كانت تعلم أنها أقامت بالأمس حفل استقبال ، فلقد ظنت أنها لم تأو إلى فراشها إلا فى الصباح !

كانت باندا شاحبة شحوباً عظيماً ، رفعت يدها فى بطء كى تسكت السيدة التى راحت ثرثر مبدية قلقلها ومعبرة عن خوفها على سيدتها ، لكن باندا طلبت كوباً من الماء !

رغم الضعف والوهن وعدم القدرة على مغادرة الفراش ، إلا أن عقل باندا كان يعمل بعنف ونشاط ... استرجعت كل ما حدث

وما قيل ، لكن فى ذهنها أسماء هؤلاء الذين وشت بهم وأرسلتهم إلى الموت بسذاجة ، تذكرت نظرات القنصل ياكيماتو فأصابها الاشمئزاز ... وقبل أن تغفو عيناها للمرة الثانية ، كانت قد اتخذت قراراً بالانتقام !

• • •

طوال الأيام التالية كانت باندا تعتذر عن استقبال أى من الذين أرادوا رؤيتها ، أعلنت وصيفتها أن سيدتها سقطت صريعة الانفلونزا ... ظلت ملازمة الفراش ليومين لم يكف فيها ذهنها عن العمل ... كانت أول حقيقة أدركتها أن أية محاولة أخرى للانتحار عبث ، ففوق أنها شىء حرمه الله ، ألا أنها أيضاً جبن وهروب من مواجهة الواقع الذى كان عليها الآن أن تواجهه ، وتصارعه ، وتنتصر عليه !

لحظة بعد أخرى كانت فكرة الانتقام تضرب بجذورها فى أعماق تفكيرها حتى استولت عليها تماماً ... استقرت الفكرة وأصبحت هى الهدف من حياتها ولو كلفتها حياتها نفسها ... تذكرت تلك الأقاويل التى وصلت إلى سمعها عن رجال حركة المقاومة الأندونيسية التى عرفت باسم « ياركنج » ، والتى تعرفت على زعيمها الشاب ذات يوم ثم اختفى واختفت معه أخباره !

بدا لها الطريق مسدوداً فهى لم تكن تعرف أحداً غير هؤلاء الذين يترددون على صالونها وعدد من الأصدقاء والصديقات لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ... غير أن بصيص من الأمل لاح لها عندما

تذكرت حبيبها عبدالله ، ذلك الكولونيل الشاب فى الحرس الوطنى الأندونيسى ... ولكن : ماذا لو كان عبدالله مخلصاً بالفعل لليابانيين ؟!

وعلى كل ... فلقد كان عبدالله ، هو أول من سمحت له بزيارتها بعد اعتكافها الذى طال لأسبوع كامل ... منذ أن ألتقت به مع اللهفة التى أخذت بمجامعها راحت تسلك فى الحديث معه طرقاً ملتوية ... كانت كلما أحست أنها تقدمت نحو هدفها خطوة ، تراجعت بعدها خطوات ... يوماً بعد يوم كانت الأحاديث مع عبدالله تسير فى دائرة مفرغة ... تقترب من الهدف ثم تتراجع خوفاً ، ومن يدريها أن عبدالله لن يشى بها كما وشت هى بالعديد من الأصدقاء ... من يدريها ، لو كان لدى عبدالله الاستعداد ، أن يوليها لفته خاصة وأنه – كمحترف – لابد قد لاحظ اختفاء هذا البعض من باتافيا ؟! ..

حتى كانت ليلة طال الحديث بينهما ، ففاجأها عبدالله ذات لحظة بقوله :

« **لقد مضى حوالى أسبوعين لم تلتق فيها بأحد ولم تستقبلى أحداً !** »

« **أنت تعرف أنى مريضة !** »

جاءها صوته يحمل الكثير من المعانى وهو يقول :

« **مهما كان مرضك ، عليك أن تعودى إلى الناس حتى لا تتناثر الأسئلة من حولك ؟!** »

قبل أن تفتح فمها بكلمة ، مال عليها وطبع على جبينها قبلة قائلاً وكأنه يبثها رسالة غامضة :

« مهما كان المرض ، علينا ألا نيأس ! »

قال الكولونيل عبدالله هذا ، ثم انصرف !

• • •

وحتى ساعة متأخرة من الليل ، لم تذق باندا ماكلويد فى تلك الليلة للنوم طعماً ... كانت كلمات عبدالله تحمل الكثير من المعانى فهل كان يقصدها ؟! ... أعياها التفكير فتمتمت وهى تأوى إلى فراشها :

« على كل ... فأنا لا أملك سوى الاستجابة لما طلبه ! »

• • •

بعد أيام قليلة عاد صالونها الأدبى من جديد كى يضم النخبة الممتازة من الطبقة الحاكمة فى جاوه ... لم يلحظ أحداً من المدعوين بقايا ذلك الشحوب الذى استطاعت أن تخفيه بالأصباغ التى أظهرت جمالها فكأنها لوحة خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة ... كان الكولونيل واحداً من المدعوين بطبيعة الحال . كما كان هناك عدد لا بأس به من الدبلوماسيين والجنرالات ورجال الاقتصاد والصناعة والأدب والفن ... فى تلك الليلة ، أدركت باندا أن ثقة اليابانيين فيها قد بلغت مداها ... ولم يلحظ أحد من المدعوين ذلك التغيير الذى طرأ على باندا فجعلها تعزف عن مناقشة الأدب والفن ، وتنخرط فى المناقشات السياسية والعسكرية التى كانت تدور هنا وهناك ...

راحت تتساءل عما أصبح يدور فى أوروبا . عن الأحوال فى جنوب آسيا ... و ... وقبل أن ينتصف الليل ، أبدى الكولونيل عبدالله رغبته فى الانصراف ... بدا على باندا الضيق فلقد كان وجوده يخفف من وطأة ذلك الإحساس الذى كان ينتابها كلما انعقد صالونها ... كانت السهرة لاتزال فى بدايتها . وكان فى وجود عبدالله عزاء لها ... ولقد أدرك حبيبها ما اعتراها ، فهمس وهو ينحنى مقبلاً يدها فى رشاقة :

« إن موعدنا غدا بعد الغروب ، ولسوف يكون لنا حديثاً شيقاً !! »

فى تلك الليلة لم تنم باندا كما ينبغى ، كانت كلمات عبدالله الآن أكثر وضوحاً فما الذى كان يقصده ؟!

ومهما كان الأمر ، هكذا قالت وخيوط الفجر تصبغ الظلام فى الأفق ، فإن عليها أن تنتظر حتى غروب الشمس فى اليوم التالى !!

• • •

عندما أعلن الخادم نبأ قدوم الكولونيل عبدالله ، خفق قلبها بعنف ...وظل يخفق وهى تهبط الدرج إلى الطابق الأول ، حتى إذا ما التقت بحبيبها . كانت مع الشوق فى ذروة القلق ، لم تكن تريد أن تخسره ، وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تتراجع ... ما أن جلست إلى جواره حتى سألها :

« والآن ... ما الذى تريدينه بالضبط ؟! »

« أنت تعلم إنى لا أريد سواك » .

ابتسم ابتسامة من يعلم ماذا تخفى . ثم قال :

« أنت تعلمين أن أول ما سوف نفعله بعد الحرب ، هو إعلان زواجنا ! »

خفق قلبها ، أرادت أن تقول له أنها تحبه ، أنه حبها الوحيد ، أن ... ... لكنه قاطعها فى حسم :

« والآن يا باندا ... ما الذى تريدينه بالضبط ! »

كمن يلقى بنفسه فى النار ، أو كمحاولة أخرى للانتحار ، قالت :

« أريد الانتقام من اليابانيين !! »

٤

رغم الحياة السهلة التى عاشتها باندا ماكلويد ، والتى أصبحت - حتى ذلك الوقت - فى أجزاء كثيرة منها مترفة . الا أنها لم تعرف طعم السعادة الحقيقية إلا فى النادر .

غير أن بعض الذين اهتموا بحياة تلك السيدة الفاتنة التى رماها قدرها وسط حقول ألغام تنفجر بالتنفس وليس باللمس فقط ... يرون أن تلك الليلة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ ، كانت أسعد ليلة فى حياتها على الإطلاق !

ظنت باندا فى تلك الليلة أن الأقدار تعبد لها طريقاً ورديا نحو المستقبل ... ذلك أنها عندما قالت للكولونيل عبدالله أنها تريد الانتقام من اليابانيين ، كانت تنتظر أى شىء فى الدنيا . إلا هذا الذى سمعته منه !

كانت تنتظر أن ينهرها حبيبها متلفتاً حوله وهو يطلب منها أن تكف عن هذه الأفكار المجنونة ، كما كانت تنتظر أن يأخذ حديثها بريبة وشك ، وانتظرت أن يحذرها ، أو أن يطلب منها التأنى ومعاودة

التفكير وتأمل الموقف ... كانت ، وكانت ، وكانت تنتظر أى شىء ألا أن يقول :

« هل تعلمين أننى عضو فى منظمة سرية لمقاومة الاحتلال اليابانى ؟! »

هتفت دون وعى :

« ياركنج ؟! »

« لا ... أنها منظمة أخرى بعد أن انكشفت ياركنج وقبض على أغلب قادتها ! »

« ولكنك ... ... »

ولم يعطها عبدالله فرصة لكى تكمل سؤالها ، قاطعها باسماً :

« ضابط من ضباط الحرس الوطنى الذى أسسه اليابانيون ، أليس هذا ما تريدين قوله ؟! »

ارتبكت باندا ، كان صراحة عبدالله قاتلة ، فهل ينصب لها حبيبها فخاً ؟!

ولابد أن ارتباكها قد لفت نظره فلقد مال عليها بعد لحظات وهو يقول :

« أليس هذا غطاء ممتازاً لنشاطى الحقيقى ؟! »

• • •

الآن كان عبدالله يضع حياته كلها بين يديها ، اجتاحتها السعادة وحاولت النطق دون جدوى ... وهى فى النهاية لم تكن تريد أن تقول

شيئاً ، وإنما كانت تريد أن تسمع إلى عبدالله الذى تحدث وأفاض فى الحديث .

قال الكولونيل الأندونيسى الشاب أن المنظمة التى ينتمى إليها هدفها ضرب الخطوط الخلفية لليابانيين وإقلاقهم حتى يحين موعد وصول جيوش الحلفاء... قال أن رجاله متناثرون فى كل مكان ، فى المدن والقرى والمستنقعات والأحراش والغابات والجزر ، لكن هناك شىء هام لابد من الانتباه إليه جيداً ... وهو أن الكمبتاى – المخابرات اليابانية – سوف تعلم أن آجلاً أو عاجلاً بعضاً من أخبارهم ... ولذلك ، فهم الآن ، والآن بالتحديد ، فى حاجة إلى مساعدتها !

هتفت باندا :

« أنا ؟! »

« نعم أنت يا باندا »

« وكيف أستطيع المساعدة ؟! »

« بأن تعرفى لنا موعد أى هجوم يستعدون له علينا ! »

« أهذا كل ما فى الأمر ؟! »

« بالقطع لا... فهناك الكثير مما يمكن أن تقدميه لنا ، ولسوف نطلبه يوم نحتاج إليك ! »

• • •

عندما انصرف عبدالله كانت باندا ماكلويد دون شك أسعد امرأة فى العالم ... لقد ألتقى حبها مع هدفها فهل يمكن أن تطلب

المزيد ؟! ... [ها هو شبح الموت يبتعد عنها وها هى الفرصة تتاح لها كى تنتقم من هؤلاء الذين خدعوها ودفعوها إلى خيانة أصدقائها ... ثم ، ها هو القدر يجعل من حبيبها وسيلتها وأداتها لهذا الانتقام ، بل يجعل منها واحدة من أعوانه فى مهمته المقدسة ... مرة أخرى ، هل يمكن أن تطلب من الدنيا المزيد ؟!

غير أنها وسط أمواج السعادة التى راحت تتمرغ فيها خطر لها خاطر :

ماذا لو أنها ظلت مخدوعة وأبلغت السلطات اليابانية عن عبدالله كما أبلغت عن الآخرين ؟!

ثم ... ماذا لو كان عبدالله يسايرها حتى يتسنى له الإبلاغ عنها ؟!

خاطران عكرا صفو السعادة قليلاً . لكنها سرعان ما أبعدتهما عن ذهنها ، كى تتفرغ طوال الليل لأحلامها الوردية !!

• • •

انقضى عام ١٩٤٣ ، ومرت من بعده شهور ، وانتصف عام ١٩٤٤ ، وبدا وكأن هذه الحرب بلا نهاية !

كان العام المنصرم مليئاً بالأحداث ، ثم أصبحت لقاءاتها مع عبدالله ، مرة أخرى منذ محاولتها الانتحار ، سرية ... فهو لم يعد يأتى إلى البيت قبل أن يرحل الخدم ، ويأوى من بقى منهم فى البيت إلى فراشه ... كانت الضربات تتلاحق فى أوروبا على جيوش هتلر التى كانت تتهاوى ، وأصبحت عصبية الجنرالات فى جاوه مثار الحديث بين العامة ... أما فى صالونها الصغير فلقد كان الجنرالات يجدون

متنفساً لهمومهم التى راحت تتكاثر ، وتدفعهم ، مع ازدياد عصبيتهم إلى الثرثرة والبوح بالكثير من الأسرار التى كانت تنقلها إلى حبيبها بانتظام !

ثمة شىء آخر أضيف إلى باندا فى هذا العام ١٩٤٤ ، فلقد أصبحت أكثر تدريباً وحنكة ... عرفت أساليب وتعلمت أساليب واكتشفت أساليب وابتكرت أساليب جديدة ، وكانت تمد عبدالله بكل ما تسمعه أو تراه أو يقع تحت يدها ... اكتشفت أن حبيبها لم يكن شجاعاً فقط ، بل كان بارعاً فى تنظيم حركة المقاومة مع حركة الحرس الوطنى - الشرعى !! - حتى أصبحا وكأنهما تنظيماً واحداً ... اكتشفت باندا ماكلويد أن له أعوان ينقلون الأخبار - إذا ما افتقروا إلى اللاسلكى - إلى غواصات بريطانية كانت تلتقى فى جوف الليل مع قوارب لصيادين فقراء يخرجون إلى عرض المحيط بقواربهم بحثاً عن الرزق ... وكان هؤلاء الصيادين ، وفى مواعيد محددة وضعت حسب جداول بالغة التعقيد ، يلتقون ، أثناء رحلات صيدهم الليلية ، بتلك الغواصات البريطانية ، كى يسلمونهم ما يحملونه من وثائق أو معلومات !

أوصى عبدالله باندا بأن تستمر فى علاقتها مع الكومبتاى ، وأن تمدهم ببعض الأخبار الصحيحة أحياناً مما جعل ثقة اليابانيين فيها تتزايد يوماً بعد يوم . لكنها أيضاً دفعتهم إلى التخلى عن بعض الحرص المطلوب فى البوح بأسرار غاية فى الأهمية ... عرفت باندا من اليابانيين - بدقة تبعث على الدهشة - المواعيد التى تحددها القيادة اليابانية للهجوم على معاقل الثوار فى القرى النائية والجزر البعيدة ...

لكنهم ، أى اليابانيون ، كانوا دائما ما يصلون متأخرين يوما أو يومين ، كى يجدوا القرى خالية إلا من أهلها الفقراء ، والجزر ليس فيها سوى فلاحين وصيادين وسكان كانوا يتجمعون حول الجنود كالذباب متوسلين طالبين بعضاً من الخبز أو الطعام !

راحت الأيام تمضى ، والأسابيع ، والشهور ... والحرب تحتدم يوماً بعد يوم ، والمقاومة تزداد حدة ، وجنون اليابانيين يدفعهم إلى التصرف بعصبية أحياناً ، وأحياناً أخرى بحمق كان يكشف ما يعتمل فى نفوسهم من خوف ..

حتى كانت ليلة !

• • •

كانت باندا فى تلك الليلة على موعد مع عبدالله ... وكانت أسابيع طويلة قد انقضت منذ أن رأته لآخر مرة ... لكنها – على أى الأحوال – لم تذهب سدى ، فلقد انقضت فى عمل دائب ومشروع بالغ الخطر استطاعت أن تنجزه وحدها ... ذلك أن باندا علمت ذات ليلة من أحد الجنرالات بوجود وثيقة بالغة الخطر تحدد أماكن تجمعات الجيش اليابانى فى أندونيسيا . والأسلحة التى يمتلكونها ، وأعدادها ، وتوزيعها ، وأماكن إخفاءها ، وأنواعها ، ومخازن الذخيرة ، وما تحويه ، والاحتياطى ، وكميته ... ثم ، الخطط التى وضعت لمواجهة أى غزو بريطانى لتلك الجزر ، والخطط البديلة لذلك الغزو ... باختصار ، كانت الوثيقة التى سعت باندا إلى الحصول عليها لا تقدر بمال ، كانت ضربة عظيمة فى ذلك العالم

المخيف . كما كانت الوثيقة تتكون من أربع وعشرين صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة . وفوق هذا كله . كان ثمة عدد لا بأس به من الخرائط العسكرية التى توضح أماكن القوات اليابانية !

وحتى الآن ، لابد لنا من الاعتراف ، أن أحداً لم يستطع معرفة الوسيلة التى حصلت بها باندا على تلك الوثيقة البالغة الخطر ... قد تكون هناك تخمينات أو حسابات أو ما إلى ذلك ، لكنه يبدو ، أن الحقيقة الخالصة لهذه العملية الباهرة ، قد ذهبت مع باندا إلى حيث ذهبت باندا ...

ويبدو أن مبعث الحيرة فى الأمر كله . أن حياة باندا فى باتافيا كانت تسير على نفس الوتيرة ... يجتمع فى صالونها قادة الجيش والطيران وأدميرالات قطع الأسطول الراسية فى موانىء أندونيسيا والدبلوماسيين والفنانين والأدباء ... هى تقضى نصف نهارها نائمة استعداداً للسهرة فى الليل ، وتستعد فى النصف الثانى لزوارها الكثيرين الذين كانوا يجدون فى بيتها راحة ودفئاً تعوضهم عما كانوا يعانون منه طيلة يومهم .

غير أن الأيام كانت تمضى دون أن يظهر عبدالله فى صالونها ، ودون أن يأتى للقائها فى المساء وبعد انصراف الضيوف والخدم ... وكلما مرت الأيام ، كلما ازداد قلق باندا على عبدالله ...فماذالو أن المعلومات التى سربتها إلى الثوار كانت مغلوطة ... ماذا لو أن اليابانيين كانوا قد اكتشفوا أمرها وسربوا إليها تلك المعلومات حتى يوقعوا

بالرجال الذين كانوا يضحون بحيواتهم من أجل حرية وطنهم ... ماذا لو أن خطأ وقع هنا أو هناك واستطاع اليابانيون أن يشنوا على الرجال هجوماً صاعقاً كى يبيدوهم ، ماذا ... ماذا لو أصيب عبدالله أو اعتقل أو اكتشف أمره ...

ظلت باندا ممزقة الإحساس ، حتى كان صباح ...

فى هذا الصباح ، جاءتها رسالة وصلت إليها بطريقة بالغة التعقيد ، تزف إليها خبر موعد سوف يزورها فيه عبدالله فى تلك الليلة !

• • •

فى الأيام الأخيرة ، كان عبدالله يزورها بعد انصراف الضيوف والخدم ... كان يدخل القصر من باب جانبى احتفظ بمفتاحه منذ شهور ... وما أن يطمئن تماماً إلى خلو المكان ، حتى يتسلل إلى البيت ، وزيادة فى الحرص ، كان عليها ألا تغادر غرفة نومها مهما حدث ومهما سمعت من أصوات ، كما أنه لم يكن يستعمل فى زياراته تلك مصابيح تضىء له الطريق ... وفى الظلام ، كان عبدالله يعرف طريقه جيداً إلى غرفة النوم ، حيث تقبع باندا فى الفراش متظاهرة بالنوم ، ولا تضىء سوى مصباحاً صغيراً تظاهرت بالتعود على النوم وهو مضاء طوال الليل ...

وهى ، فى تلك الليلة ، وعندما سمعت دقاً خافتاً على باب الغرفة ، هوى قلبها بين ضلوعها ... فى لهفة نهضت كى تفتح الباب ، ما إن

رأته أمامها ، حتى هوى قلبها بين ضلوعها ... ما ، أن طالعها وجهه فى الضوء الخافت حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه .. وعندما استقر بهما المقام فوق مقعدين وثيرين تتوسطهما مائدة مستديرة يقبع المصباح الصغير فوقها ، حتى سألته :

« هل كل شىء على ما يرام ؟! »

ابتسم عبدالله وقد أدرك أن باندا أصبحت ذات هدف نبيل :

« نحن مدينون بسلامتنا ، وربما بأرواحنا ، لك يا باندا ! »

أدركت أن هجوم اليابانيون على الثوار قد فشل فى المرة الأخيرة أيضاً فتنفست الصعداء وقفزت من مكانها وقد اطمأنت إلى حيث أحد الأدراج وأخرجت منه تلك الوثيقة الخطيرة التى استطاعت الحصول عليها ... عادت إليه بالأوراق فسألها :

« ما هذا ؟! »

« مفاجأة !! »

وكانت مفاجأة بالفعل !

مفاجأة ألجمت لسان عبدالله حتى مطلع النهار ... فلقد كان ما بين يديه كنز بكل ما تحمل الكلمة من معنى ... كنز عكف على دراسته صفحة صفحة ... استغرق عبدالله فى القراءة وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ظلت باندا فى انتظار أن ينتبه إليها حبيبها الذى غاب عنها أسابيع دون جدوى ، مرت بيدها فوق شعره متسائلة :

« ألا تستطيع قراءة الوثيقة فى وقت آخر ؟! »

ابتسم عبدالله معتذراً وقد أدرك ما تعنيه ، قال :

« ليس هناك وقت كى ننسخ الوثيقة فنحن فى أشد الحاجة إليها ، ثم أنها من الأهمية بحيث يجب إرسالها إلى « بورنيو » اليوم ، ومن هناك سوف ينقلها قارب من قوارب الصيد إلى عرض البحر ! »

أطلت من عينيها نظرة عتاب فأردف :

« إن موعد لقاء الغواصة البريطانية بعد منتصف ليلة الغد بدقائق ! »

« إذن فلسوف أعد لك فنجاناً من الشاى القوى ! »

كان من بقى من الخدم فى البيت يغطون فى النوم عندما هبطت باندا إلى المطبخ كى تعد لحبيبها فنجاناً من الشاى القوى الذى يستعين به على مقاومة النوم ... وحتى مطلع النهار كان الكولونيل عبدالله قد ألم بكل ما فى الوثيقة والخرائط المرفقة ... طواها بعناية ودسها فى صدره وكان لابد له من الرحيل فلقد بدأ ضوء النهار يتسلل من خلف الستائر المسدلة رغم حرارة الجو ، كان لابد له من الانصراف ، حتى لا يشعر به ولا يراه أحد وهو يتسلل من البيت ... ضمها إلى صدره فى حنان وهو يهمس :

« كيف أشكرك يا باندا ! »

« متى أراك ثانية ؟! »

طافت بملامح عبدالله سحابات من حزن دفين :

« إن الأمور تزداد تأزماً كما تعلمين ، وقد ازدادت عصبية اليابانيين كثيراً وأصبحوا يشكون فى كل الناس بلا استثناء ... وقد لا أستطيع أن أراك قبل أسابيع ، وربما شهور ! »

« عبدالله ... إنى أموت فى كل ليلة ألف مرة قلقاً عليك ! »

«سوف تصلك رسائلى كلما تيسر هذا ، ولكن ... دعى عنك القلق واستمرى فى العمل على أن تكونى أكثر حرصاً فى الأيام القادمة ... إن النصر يقترب يا باندا ! »

قال هذا ، ثم انفلت من بين ذراعيها وانصرف دون أن يلتفت وراءه !

• • •

مر عام ١٩٤٤ كى تضيف باندا إلى انتصاراتها انتصارات أخرى ، ولكى تضيف الأيام إلى باندا جرأة أكبر ، وثقته أكثر ، وخبرة أعظم ... وثبات دفعها إلى المشاركة الفعلية فى مقاومة اليابانيين ...

وجاء عام ١٩٤٥ يحمل نذر العاصفة التى كان مقدراً لها أن تهب على أندونيسيا ... وعندما هبط الجنود البريطانيون إلى الجزر الأندونيسية . جاء نزولهم فى أضعف ثلاث نقاط فى تحصينات اليابانيين واستحكماتهم التى ظلوا سنوات يشيدونها ... ولقد أظهر هذا الهجوم الساحق الذى شنه البريطانيون أنهم كانوا على علم وثيق

بكل مواطن الضعف فى تشكيلات الجيش اليابانى ... وكان القليلون ، والقليلون جداً ، هم الذين يعرفون أن الفضل فى هذا النصر . يرجع أصلاً إلى باندا ماكلويد !

... ...

... ...

كانت المعارك ، بالرغم من هذا طاحنة ... فى الأحراش والغابات ، على سواحل الجزر الصخرية وفى القرى وشوارع المدن ... وكان عبدالله قد استطاع أن يضع تنظيماً للحرس الوطنى مع رجال المقاومة ، جعل منهماً قوة ضاربة ومؤثرة تماماً ... وما أن حلت اللحظة المناسبة . حتى راحوا يكيلون الضربات إلى مؤخرة الجيش اليابانى الذى راح يتشتت هنا وهناك !

كانت الأنباء تصل إلى باندا يوماً بيوم ، كانت تصلها عن طريق رجال عبدالله فى باتافيا أحياناً ، وعن طريق من تبقى من اليابانيين فى باتافيا أحياناً أخرى ... اجتاحتها السعادة اجتياحاً ، ها هى رغبتها فى الانتقام تتحقق وعلى أكمل وجه ، وها هو تكفيرها عن ذنوبها التى ارتكبتها فى حق أصدقاء وثقوا فيها يضيف إليها راحة نفسية عميقة ... لكنها فى نفس الوقت ، كانت تتمزق قلقا على حبيبها الذى اختفت أنباؤه تماماً لشهور طالت أكثر مما ينبغى ... حتى إذا كان صباح حار ورطب ... جاءتها وصيفتها كى تزف إليها نبأ وجود الكولونيل فى بهو البيت !!

• • •

قفزت باندا من فراشها كالمحمومة وهى تسأل :

« أهو هنا فى البيت ؟! »

« نعم يا سيدتى ! »

« ولماذا لم يصعد ... لماذا يظل فى البهو ! »

طافت بملامح السيدة الأندونيسية سحابة من حزن غريب وهى تقول :

« لقد طلبت منه ذلك ، أخبرته أن هذا سوف يسعدك ، لكنه رفض ! »

ابتسمت باندا وهى تبدل ملابسها بسرعة ... هذا هو حبيبها بعينه . المسلم الذى يحافظ على احترام الإنسان رغم أنه فى حكم الزوج وهو يعلم ذلك . اندفعت تغادر الغرفة وتخطف درجات السلم إلى حيث كان عبدالله هناك ، فى منتطف البهو يقف شامخاً ، تطل من عينيه نظرات حيرى ... جمدت باندا وهى تحملق فيه وقد تسارعت ضربات قلبها ، واجتاحت صدرها أعاصير من الحب والألم معاً !

كان عبدالله يقف أمامها وقد بتر ذراعه الأيسر ، وعلق ذراعه الأيمن إلى عنقه وقد اختفى خلف الضمادات ... بدالها حبيبها وكأن العمر تقدم به عشرات السنين ... كان شاحباً ، ضعيفاً ، واهناً ، غائر العينين ، جاف الشفتين ، كابى النظرات ... حاولت باندا أن تتحدث فلم تستطع ، وكان هو الذى تحدث أولاً ، قال :

« ألا زلت تريدينى ؟! »

هتفت فى لوعة واستنكار :

« **عبدالله !** »

« **وأنا على هذه الصورة ؟!** »

انفجر الدمع منهمراً من عينيها كالشلال . تقدمت منه فى حرص من يخاف على قارورة هشة من الكسر ، انداح صوتها وهى تتقدم منه :

« **الآن وقد خرج اليابانيون من أندونيسيا ... لن أتركك أبداً ... أبداً !** »

« **هل أنت واثقة ؟!** »

« **أكثر من أى وقت مضى !** »

لمعت فى عينيه نظرات أمل اجتذبتها إلى صدره فارتمت فوقه وهى تقول :

« **كم أحبك !** »

لم يكن عبدالله يستطيع الآن أن يضمها إليه كما كان يفعل فى الماضى ... افتقدت ذراعيه عندما جاءها صوته وهو يقول :

« **ولكن هناك حقيقة لابد لك أن تعلميها جيداً يا عزيزتى !** »

رفعت إليه رأسها وقلبها يرتجف :

« **ما هى ؟!** »

« **إن الحرب لم تنته بعد !** »

جحظت عيناها محملقة فيه وهى تهتف :

« **لكن اليابانيين رحلوا !** »

« **ولسوف يعود الهولنديون فى القريب !** »

أدركت باندا ما كان يجول فى ذهن صاحبها الذى أردف :

« **إننا لم نقاوم اليابانيين كى نمهد الطريق لعودة الهولنديين !** »

وصمتت باندا ...

كان كلام عبدالله حقيقياً ... فهو القدر إذن ، قدرها ، قدرهما معاً .. عاد عبدالله إلى الحديث :

« **لسوف يكون الكفاح هذه المرة أكثر ضراوة يا باندا !** »

« **أعرف !!** »

قالت هذا وذكريات ما قبل الحرب تنبثق من الماضى كنافورة من عذاب .

« **ولسوف يحمّلنا هذا المزيد من الأعباء !** »

أدركت أن وراء حديثه ما وراءه ، فسألته :

« **كيف ؟!** »

« **بعد أسابيع ، أو ربما بعد شهور... سوف يصبح عليك أن تعلنى كراهيتك لنا !** »

هتفت غير مصدقة :

« **ما هذا الذى تقول ، هل نسيت أنى أندونسية أولاً !** »

سار بها إلى مقعد ، وأومأ لها أن تجلس فجلست ، وجلس هو على مقعد مجاور ... وعندما بدأ الحديث ، بدا وكأنه ينتقى الكلمات . ويتحسس الحروف والمعانى .. قال :

« عندما يأتى الهولنديون ، وعندما تبدأ معركة التحرير ، فلسوف نكون فى حاجة إلى معلومات عن المستعمرين ... ولن تستطيعين هذا إلا بوقوفك ، علانية ، فى المعسكر المعادى لنا ! »

وفهمت باندا ...

ها هو التاريخ الشديد القرب يعيد نفسه ...

فهمت أن قدرها قد حتم عليها أن تستمر فى لعب نفس الدور ، وأن عليها فقط ، أن تغير ملابس التمثيل بما يتلاءم مع دورها الجديد ...

وكانت تعلم الآن ، أنها ، فى واقع الأمر ، مؤهلة لذلك !!

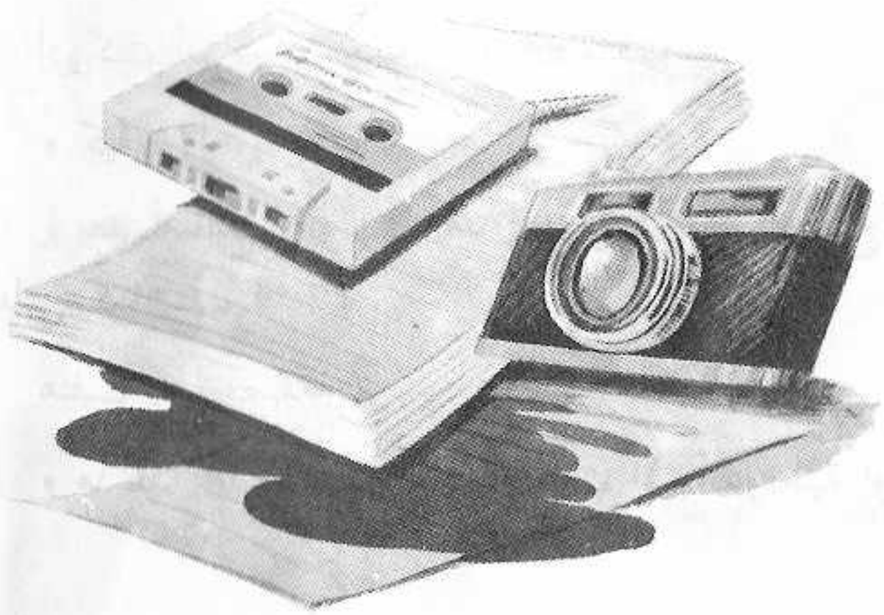

٥

لا يستطيع المرء هنا إلا يتوقف متسائلاً فى دهشة عن مصير هذه السيدة التى رسم لها القدر طريقاً لا فرار منه ولا فكاك ... لا يستطيع إلا أن يتوقف متأملاً أحداث هذه التراجيديا التى أبت إلا أن تحرمها من الحب يوم ظنت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من سعادة طالما تمنتها ...

يبدو الأمر غريباً كل الغرابة ، بل – استغفر الله العظيم – يبدو قاسياً قسوة تبعث بالقشعريرة إلى الجسد ... إن قدر باندا لم يكتف ببتر ذراع حبيبها المناضل الثورى ، بل وضعهما معاً فى موقف من الصعب الاختيار فيه ،وضعهما فى موقف كان عليهما أن يستمرا كل فى طريقة ... وبالرغم من إصابة الكولونيل عبدالله ، فإن الثوار أمثاله لا يوقفهم عن المسيرة ذراع مبتور ... وإذا كان الأمر كذلك ، فهل كانت باندا تستطيع أن ترفض عرضه الخاص بالتجسس على المستعمرين الهولنديين لحساب المقاومة الأندونيسية .

بالقطع لا ...

إن أحداً – بداية – لا يستطيع أن يزعم أن باندا تجسست لحساب الكمبتاى اليابانى من أجل المال أو الجنس ... كان معها من المال ما يكفيها ، بل ويزيد عن حاجتها ، ورغم جمالها الباهر ، إلا أنها أغلقت قلبها منذ وفاة زوجها وانغمست فى دراسة الفنون والآداب ... ورغم هذا فقد فعلت ، غاصت فى المستنقع تحت ضغط الظروف ، وربما تحت ضغط الخوف والتهديد بتاريخ أمها ، أو الرهبة من إلقائها فى أحد معسكرات الاعتقال اليابانية .

والآن ... وقد اكتسبت خلال عامين أو ثلاثة خبرة لا بأس بها ، لم تكن تستطيع أن تتراجع أمام نداء الوطن الذى ولدت فيه وتربت بين ربوعه ، لم تكن تستطيع أن تخذل عبدالله فهو لم يطلب منها أكثر من أن تلعب نفس الدور ، نفس الدور من أجل هدف أسمى ... ذلك أنها بالرغم من أمها الهولندية الشهيرة ، إلا أنها كانت تعتبر نفسها أندونيسية لحماً ودماً ... وعلى كل ، فلقد اتخذت مع عبدالله قراراً بالإختفاء عن المجتمع لمدة أسبوع كامل لا تستقبل فيه أحداً ، كان اليابانيون قد غادروا الجزر الأندونيسية مدحورين ، وكان الهولنديون ، بعد الغزو البريطانى للجزر ، قد بدأوا يحتلون أماكنهم القديمة ، كما كان الوطنيون الأندونيسيون يستعدون لمعركة كانوا قد أدركوا من قبل أن تبدأ ، أنها سوف تكون مريرة .

وانقضى أسبوع ، وعاد صالون باندا يفتح أبوابه للمستعمرين الجدد ... وخلال هذا الأسبوع ، كانت باندا وعبدالله قد تحولا ، فى الصحف البريطانية بالتحديد إلى بطلين نادرين ... فلقد أبت الصحافة الغربية ، والأوروبية بوجه خاص ، إلا أن تكشف عن الدور الذى

لعبته باندا ضد اليابانيين . وهكذا تدفق الصحفيون من كل أنحاء العالم على بيتها يسألون ويستفسرون ويصورون ويسجلون ... وعُرفت باندا فى الأيام القليلة التالية ، كواحدة من أبطال المقاومة ضد الاحتلال اليابانى ... وتوافد المسئولون الهولنديون على صالونها يخطبون ودها ويبغون صداقتها ، وكان أعظم ما أعجبهم فيها ، هو ذلك الاشمئزاز الذى تظاهرت به نحوالأندونيسيين أنفسهم ، تماماً كما اتفقت مع عبدالله ... وهكذا ، ما أن انقضت أسابيع قليلة ، حتى كانت الطبقة الأرستقراطية الهولندية فى باتافيا تخطب ود باندا ، ويسعى أفرادها بكل الوسائل ، كى يحصل الواحد منهم على دعوة لحضور الصالون .

ولم تكن باندا تعرف بطبيعة الحال ، أن الأمور على سطح الكرة الأرضية قد تغيرت كثيراً ، وأن حرباً ضروس قد وضعت أوزارها ، كى تنشب حرب جديدة بين معسكرين عملاقين ، هما المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى ... وأن الصراع بين هذين المعسكرين بدأ محموماً من اللحظات الأولى لوقف إطلاق النار وانتهاء الحرب ...

وكان من بين الذين جاءوا إلى صالون باندا ماكلويد ، رجل يدعى « بلاتير » ... كان بلاتير هذا موظفاً عادياً فى مكتب الحاكم العام الهولندى ... ولم يكن من هذا النوع الذى يثير الارتياح لدى الآخرين ، بل العكس ... فلقد أحست باندا ، منذ الليلة الأولى التى دخل فيها بيتها ، إنه رجل غامض ... وكثيراً ما ضبطته يحدجها بعينين غريبتين نفاذتين ... وكان أمراً طبيعياً أن تفضى باندا إلى عبدالله بأمر هذا الضيف الغريب ، فما كان من الكولونيل

الأندونيسى إلا أن بادر على الفور – عن طريق رجاله – فى البحث عن حقيقة بلاتير ... من هو ؟ ... ماذا يفعل ؟ ... ثم ، ماذا يريد ؟!

ومن مصادرها الخاصة عرفت باندا بدورها أن بلاتير يعمل لحساب الهولنديين ، وأنه يمدهم بأخبار المقاومة الأندونيسية التى كانت تشتد يوماً بعد يوم ، لكن الغريب فى الأمر ، أنها اكتشفت فى نفس الوقت أن تلك المعلومات التى يمد بها بلاتير مكتب الحاكم الهولندى العام عن المقاومة الأندونيسية ، كانت فى الغالب معلومات مضللة !!

فمن يكون هذا الرجل ؟!

ظل السؤال بلا جواب حتى جاءها عبدالله بالنبأ الحقيقى ، ذلك أن عبدالله اكتشف عن طريق رجاله أن بلاتير يعمل لحساب الثورة الصينية بقيادة ماوتسى تونج !!!

• • •

حتى كانت ليلة ...

انصرف فيها المدعوون جميعاً ، وطلبت باندا من بلاتير أن ينتظر ... فانتظر !

بعد أن انصرف الجميع ، واجه عبدالله بلاتير قائلاً :

« استمع إلىّ جيداً يا سيد بلاتير .. إننا نعلم يقيناً أنك تعمل

ضد الهولنديين بالرغم من وظيفتك هذه فى مكتب الحاكم العام ، وبالرغم من تظاهرك بالولاء للهولنديين »

فى برود شديد ، قال بلاتير :

« ثم ماذا ؟! »

« إذا كنت مؤمناً حقاً بقضيتنا ، فعليك أن تساعدنا ، ولسوف تنال أجراً عن مساعداتك ! »

قال بلاتير :

« أنت تظن أنى لا أعلم شيئاً عن صديقتك ؟! »

واجهه عبدالله بنظرة قاسية وهو يقول :

« فلتذهب إذن إلى الجحيم ! »

فى نغمة تهديد سأله بلاتير :

« أهذا كل ما فى الأمر ؟! »

« إن كنت تريد التعاون معنا ، فلسوف تحصل على ثمن تعاونك هذا ! »

ولابد أنه كان قد اتضح لبلاتير أن الطريق أمامه مسدوداً ، ذلك أن لهجته تغيرت فجأة وهو يقول :

« ما الذى تريده منى إذن ؟! »

« كل ما تستطيع الحصول عليه من أسرار عسكرية خاصة بهجوم الهولنديون علينا ! »

وهكذا ، وجدت باندا ماكلويد نفسها وسط أتون معركة لم تعمل لها حساباً ، كانت رقعة الصراع تتسع ، وعناصرها جديدة تدخل ، وأصبحت الجاسوسية ... هى محور حياتها ، فلقد كانت المقاومة الأندونيسية لقوات الاحتلال الهولندى تشتد يوماً بعد يوم ، وأعلنت الولايات المتحدة الأندونيسية ... وبدأ الهولنديون حركة تطهير فتحولت الغابات والأحراش والجزر إلى جحيم ... وكان بلاتير حريصاً كل الحرص ، على إمداد عبدالله ، عن طريق باندا ، بكل ما يقع تحت يده من معلومات فى مكتب الحاكم الهولندى فى مقابل مادى كانت تدفعه له باندا أولاً بأول ، كما كانت هى الأخرى ، تمد خطيبها بكم هائل من المعلومات التى كانت تستقيها من أصدقائها من الطبقة الحاكمة ... وكلما اشتد أوار لمعركة ، كلما ازداد قلق باندا ... ذلك أن عبدالله كان قد أعلن موقفه صراحة ، ولم يعد وجوده فى باتافيا أمراً مقبولاً ، وانقضت الأسابيع والشهور ، كانت ترسل له كل ما يقع تحت يدها وكل ما يمدها به بلاتير من معلومات ، ولكن ... لم يكن هناك خبراً واحداً عنه !!

• • •

كان عام ١٩٤٨ يزحف نحو نهايته ، وكان قلق باندا قد وصل إلى ذروته ، فلم يكن لديها أى خبر عن عبدالله لعدة أشهر ، وكانت الأنباء تترى عن عنف الصراع بين الوطنيين والمستعمرين ...

حتى كان صباح ...

جاءها الخادم يعلن عن وجود كولونيل أمريكى يطلب لقاءها !

هتفت باندا وقد خفق قلبها هلعاً :

« **كولونيل أمريكى ؟!** »

« **نعم يا سيدتى ، هكذا قال السيد المنتظر فى البهو !** »

« **ما الذى تعنيه بالله عليك ؟!** »

« **إنه يرتدى ملابس مدنية !** »

بعد دقائق كانت باندا تجلس أمام رجل فارع الطول أحمر الوجه صلب الملامح متسائلة عن سبب زيارته الغير متوقعة ... قال الكولونيل المجهول الذى لم يقدم لها نفسه بالاسم :

« **أن لدى أخباراً غير سارة يا سيدتى !** »

هتفت :

« **عبدالله** »

« **لقد سقط فى المعركة ولك أن تفخرى به !** »

مادت الأرض تحت قدمى باندا ، ترنحت فى جلستها فهب إليها الرجل مساعداً وهو يقول :

« **ليس لك أن تحزنى على موته يا سيدتى ، لقد حارب من أجل مبادىء سامية !** »

جاء صوتها من بعيد وكأنها تحدث شبحاً :

« **لكنه ذهب !** »

« **وعليك أن تكملى الرسالة !!!** »

« **رسالة ؟!** »

هكذا جاءها الأمر دون رحمة أو انتظار - حتى - لاستيعاب الكارثة التى منيت بها ، والأمل الذى تبدد ، والحب الذى انقضى ، والحبيب الذى استشهد ... راحت تحملق فيه غير مصدقة ، لم تدرك فى البداية مغزى حديث الرجل ، وإن كان المعنى ، بمرور الثوانى ، راح يتسلل إلى عقلها ثانية بعد أخرى ... ساد الصمت لثوان قال الكولونيل الأمريكى بعدها :

« إن أمامك هدف لابد من تحقيقه ! »

« هدف ؟! »

« إننا فى حاجة إليك ! »

صاحت باندا وهى ممزقة الصوت :

« هل تريد منى أن أؤيد الحكم الهولندى ؟! »

« سيدتى ... ... »

قاطعته ناهضة :

« ليس من حقك أن تطلب منى الاشتراك فى مثل هذا العار ! »

نهض واقفاً وقد تحولت نغمة صوته وهو يقول :

« هل تعرفين شخصاً اسمه زيللى ؟! »

سقطت باندا جالسة على مقعدها وهى تحدج الرجل بنظرات تائهة ، مادت بها الأرض مرة أخرى ، إنهم يورثونها بعضهم لبعض ، إن زيللى هدا هو الذى قادها إلى التعاون مع اليابانيين ، إنه هو هو قريب أمها الوقح النظرات والكلمات معاً ، إنه هو الذى فتح

لها الباب نحو هذا الجحيم الذى تعيش فيه منذ وطأت قدماه أرض بيتها لأول مرة .

كانت باندا ترتجف ، كانت تريد أن تصيح ، أن تصرخ ، أن تسب وتلعن ... فها هو رجل غريب يطلب منها الاستمرار فيما لم ترد الاستمرار فيه ... لكنه فى حقيقة الأمر لا يطلب ، أنه يأمر وما ذكره لزيللى بالذات ، إلا لكى ينبهها إلى أنهاكانت تتعاون مع اليابانيين ... أنه ... أنه يهددها بماض لايد لها فيه ... يهددها فى نفس اللحظة التى زف إليها خبر فقدان الصديق والحبيب والسند ، وهى لم تعد تملك سلاحاً بعد ، وعندما وجدت صوتها أخيراً سألته :

« هل تعرف زيللى هذا يا سيدى ؟!! »

أدرك الرجل أن الفرصة قد أتيحت له من جديد فعاد إلى الجلوس قائلاً :

« إن السيد زيللى يعتقد أنك سيدة قوية ، وأنك ستتغلبين على الموقف مهما كانت صعوبته ! »

تاهت نظراتها كما تاهت أفكارها فى خضم هائل من الأسئلة ، وعاد صوت الرجل يأتيها وكأنه ينبعث من بعد آلاف الأميال :

« إنه يرى أن ابنة ماتا هارى جديرة بأمها ! »

ها هو الشبح يطل عليها من جديد ... ها هى ذكرى أمها تعود مرة أخرى كى تفرض عليها ما لا تريد ... أدركت باندا ماكلويد أن لا سبيل إلى المقاومة ، لقد حاولت فى البداية ولم تستطع ، غازلها الأمل يوم ألتقت بعبدالله وظنت أن زمن السعادة يقترب ... لكن

عبدالله سقط ومات ، ذهب وتركها وحيدة فى عالم غامض ومثير ... تركها تواجه دنيا غير الدنيا ، وناساً غير الذين ألفت التعامل معهم ، وقوانين لعالم ملىء بالألغاز والأسرار يحفه الخطر من كل جانب ... ولم يكن أمامها سوى أن تسأل فى استسلام :

« **ماذا تريد منى ؟!** »

« **ألا تيأسى ، ولا تتوقفى ... أن تستمرى ؟!** »

« **كيف ؟!** »

هكذا سألته فقال بخبث :

« **بأن تقفى فى الجانب الصحيح !!** »

بدا لها العرض بذيئاً ومقززاً ، كانت جملة الرجل تحمل من شحنات التهديد ما لا قبل لها به ... لقد وقفت فى الجانب الصحيح يوم ساعدت الحلفاء على غزو أندونيسيا ، وكانت تقف فى الجانب الصحيح يوم وقفت إلى جوار الوطنيين ضد الهولنديين الذين استعمروا أندونيسيا ... إذن فلقد كانت كلماته تعنى تلك الأيام التى دفعها فيها زيللى دفعاً إلى هذا الطريق ، كان السلاح الذى يشهره ذلك الكولونيل الأمريكى الفارع الطول ذا فوهتين ، فوهة من الممكن أن ينطلق منهاتاريخ أمها ، وفوهة ستصيبها فى مقتل لو كشف الستار عن تعاملها مع اليابانيين .

ضحكت باندا ماكلويد ضحكة قصيرة تحمل من المرارة والسخريه ما لم يخف على أذنى الرجل الجالس أمامها يدخن ، وقد وضع ساقا

فوق ساق ، وراح يرمقها بعينين نفاذتين ... وما لبث الكولونيل الغامض أن سألها :

« **هل أكون متطفلا لو سألتك عن سبب ضحكتك هذه !** »

« **أبداً سيدى الكولونيل ... فقط ، لقد تذكرت أن كل جانب هو الصحيح بالنسبة لمن يقفون فيه !!** »

كأنه لم يسمعها ، أو كأنها لم تقل شيئا ، قال الرجل وكأن الأمر مفروغ منه :

« **سوف ندربك بعناية ، ونلقنك أصول اللعبة !** »

إذن ، فسواء وافقت أو لم توافق ، فلقد أُتخذ القرار وانتهى الأمر !

مرة أخرى أدركت باندا أن لا مفر ... وعلى كل الأحوال ، لم يعد هناك ما تأمل فيه أو ما يستحق أن تحافظ عليه ... فلقد مات عبد الله !

مضت لحظات صمت قبل أن تقول :

« **فليكن ما يكون !** »

« حسن ... ولسوف نعطيك من الآن اسم « **زهرة الشمس !!** »

• • •

لا يملك الإنسان ، مهما كان انتماؤه ، إلا أن يقف ها هنا ، وعند تلك النقطة بالذات من حياة باندا ماكلويد ، وقد استبدت به الحيرة والألم معاً ... فما الذى كانت تستطيعه هذه السيدة فى مثل هذا الموقف ؟!

ومهما قلبنا الأمر ، وأمعنا فيه الفكر ، فلسوف نصل إلى طريق مسدود .... وإذا بقوانين العلم تنهار أمام واقع تصرخ كل مكوناته بان للقواعد استثناءات عديدة ... ذلك أن باندا ماكلويد ، ابنة ماتاهارى ، لم تكن تملك إلا أن توافق ... ولم يكن المال هو السبب ، كما لم يكن هناك جنس على الإطلاق ، لامن بعيد ولا من قريب ، وحتى المبدأ لم يكن دافعا من دوافعها ... إن المتتبع لحياة هذه السيدة التعسة ، سوف يهتف فزعا عندما تأتى لحظة لا تجد فيها القدرة على الاستمرار ، كانت قد تعبت ، وكان جزاء رفضها هو « الموت » !!

فهل كانت باندا ، فى كل ما فعلت بعد ذلك ... تؤجل ــ فقط ــ لحظة موتها ... حتى إذا جاءت لحظة الانهيار ، راحت تستعجل تلك اللحظة المشئومة ؟!

• • •

مضت بعد ذلك اللقاء شهور ثلاث لا يعرف أحد عنها شيئاً ... ذلك أن هناك من الأسرار ما لا يمكن البوح به فى كل أجهزة المخابرات فى العالم مهما كانت درجة الحرية فى الحصول على المعلومات بعد مدد معينة ... ثلاث أشهر ساقطة تماما من تاريخ باندا ، فلا أحد يعرف أين كانت ولا كيف دُربت ، ولا على أى شىء تدربت ...؟!.... فقط كل ما عرف عنها ، انها بعد ثلاثة شهور ظهرت فى الصين الشعبية !!!

• • •

نعم ...

ظهرت فى الصين وهى ترتدى زى ممرضة فى هيئة الإغاثة الدولية ... ففى تلك السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، كانت تتشكل من جديد بقوى جديدة وملامح جديدة ... وإذا كان ماوتسى تونج قد قاد ثورة شيوعية فى الصين ، فإنه كان حليفا قوياً ومحترماً فى حربه ضد اليابانيين الذين احتلوا أرض بلاده ... كما كانت هناك الثورة فى فيتنام ، والقلاقل فى كوريا وأصدقاء الأمس يواجهون بعضهم البعض بأقسى أسلحة الدمار ، وشبح الحرب يخيم على الدنيا من جديد ...

فى شنغهاى ، ظهرت باندا بذلك الزى الإنسانى ... لكنها ما لبثت أن خلعته كى تعمل ساقية فى البار الدولى بشنغهاى ... وهناك ، أمدتها تجربتها مع ما تلقته من تدريبات ، على اكتشاف سر هائل ، وهو أن هذا البار الشهير ، لم يكن سوى مقر قيادة المخابرات السوفيتية ــ كى . جى . بى ــ فى تلك المنطقة التى كانت لا تزال مشتعلة فى العالم ...

فى هذا البار وجدت باندا نفسها وسط عشرات العملاء الذين يتلقون المعلومات من بورما وكوريا وأندونيسيا وسيام والهند الصينية والفلبين ... ومن هذا المكان أرسلت باندا إلى رؤسائها الجدد بمعلومات وفيرة عن تحركات الشيوعيون فى أرجاء آسيا ، كانت معلومات باندا غزيرة كما كانت كلها صحيحة ... ولكن ودون

تعليمات ، اختفت ابنة ماتاهارى من شنغهاى كى تظهر فى مدينة « شنج كنج » التى كان ماوتسى تونج قد اتخذها فى تلك الأيام مقرا لقيادته ... لم تظهر فى « شنج كنج » كممرضة فى هيئة الإغاثة الدولية ولا كساقية فى بار ... بل ظهرت كأندونيسية متعصبة لمبدأ « آسيا للآسيويين » ... بدت للجميع فى هذه المدينة فتاة تتفجر بالحياة والحماس والأمل فى أن يرفرف العلم الأحمر فوق ربوع اسيا كلها ... ظهرت فى المدينة التى كانت تشغى بالمئات من رجال الأمن تحت اسم « وهلمينا فان ديرين » والتى كانت زوجة لمبشر هولندى من « هانكاو » ... ولم يكن صعبا عليها ، بعد فترة وجيزة من وصولها إلى « شنج كنج » أن تتعرف إلى سيدة تدعى « مانج تسى » ، وكانت وظيفتها هى تعليم الزعيم الصينى دروساً فى اللغات ، وأصبحت واحدة من أقرب صديقاتها إلى نفسها ، وفى تلك المدينة ، استعملت باندا الإرسال اللاسلكى ، فى بث المعلومات إلى الأمريكيين فى طوكيو باليابان ... كانت فى تلك الأيام تبدو شجاعة إلى حد يفوق الوصف ، لكنها ، فى حقيقة الأمر ، بدت وكأنها تتعجل لحظة موتها !!

أرسلت إلى الأمريكيين تقارير وافية عن الحركات الشيوعية السرية فى بورما ، وسيام ، والهند الصينية ... كما بعثت بمعلومات لا تقدر بمال عن مساعدة ماوتسى تونج لقوات فيتنام الشمالية ... كما أرسلت أول خبر عن الوقت المناسبة للتدخل الشيوعى فى كوريا .

هكذا اندفعت باندا فى الطريق الوعر لا تبالى بالمخاطر ، وكانت تنتقل من مكان إلى مكان وتبث رسائلها كى تفاجىء الآذان المصغية فى اليابان من المخابرات الأمريكية بمكان وجودها ... وفى حقيقة الأمر ، إن الذين كانوا يعرفون حقيقة باندا ماكلويد كانوا قلة من الرؤوس الكبيرة ... أما باقى الرجال فلم يكونوا يعرفون عنها سوى ذلك الاسم الكودى الذى أطلقوه عليها ، وهو « زهرة الشمس » !

• • •

فى عام ١٩٥٠ اختفت زهرة الشمس مرة أخرى دون أن يعلم أحد عن مكانها شىء ، ولقد أثار هذا الاختفاء قلق الرجال عليها ، فكلفوا عدداً من جواسيسهم فى الصين ، بالبحث عنها دون جدوى ... لم تعد زهرة الشمس تظهر فى « شنج كنج » رغم قربها الشديد فى تلك المدينة ، من ماوتسى تونج وحاشيته ... كما لم تظهر زهرة الشمس فى شنغهاى ... فإلى أين ذهبت إذن ؟!

ثم .... فجأة ، ظهرت زهرة الشمس فى مدينة « مالينج سونج » الكورية ، ومن هناك أرسلت تقريراً وافياً عن الهجوم الشيوعى فى كوريا ... وما هى إلا أسابيع ، حتى نشبت الحرب بالفعل !

• • •

مرة أخرى ران الصمت على باندا ماكلويد ، أو زهرة الشمس ...

لكنه صمت استمر شهوراً ستة لا يعرف أحد عنها شيئا ... حتى

إذا كان يوم ٢٤ مايو عام ١٩٥١ ، ظهر فى هونج كونج رجل رث الهيئة مهلهل الثياب زائغ العينين ... وبالرغم من مظهره الرث هذا ، فلقد اتجه فى صبيحة اليوم التالى لوصوله إلى شنغهاى ، إلى مكتب المخابرات البريطانية فى المدينة .

اعترض الحارس ، وكان برتبة عريف ، طريق الرجل :

« إلى أين تظن أنك ذاهب أيها السيد ؟! »

هكذا سأله العريف فأجابه الرجل المنهك القوى :

« أريد أن أرى واحداً من المسئولين هنا ! »

كانت هيئة الرجل لا تبدو مشجعة ، بل أن القذارة البادية عليه كانت تثير التقزز ... كاد العريف أن يطرد الرجل ، لولا نظراته تلك المتوسلة ، وصوته الواهن وهو يقول :

« اسمع أيها العريف ، لم أعد قادراً على السير خطوة واحدة ، وعلى ذلك ، فأنا لا أستطيع الاتصال بمخابراتى الخاصة ، ولابد لى من مقابلة ضابط مسئول ! »

بعد دقائق طالت قليلا ، أدخل الرجل إلى مكتب جلس فيه وحده لدقائق وصلت إلى الثلاثين ... بعدها فُتح الباب ودخل شاب انجليزى قدم نفسه :

« أنا النقيب هورس ، ما الذى أستطيع ان أقدمه لك ؟ »

« وأنا جوزيف ميخاليسكى ، الضابط السابق فى جيش روسيا البيضاء ! »

فى برود قال الضابط الانجليزى الشاب :

« ثم ؟! »

« لقد كنت أعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية فى كوريا الشمالية ! »

« ثم ؟! »

هكذا جاء صوت الضابط البريطانى مغموساً فى برود قاتل !

ولم يجد السيد ميخاليسكى سوى أن يهتف :

« لقد قدت كتيبة الإعدام التى أعدمت باندا ماكلويد فوق ثلوج كوريا ! »

هب الضابط الشاب واقفا عند سماعه لاسم باندا هاتفا :

« ماذا قلت ؟! »

« باندا ماكلويد ، ألم تسمع بهذا الاسم ؟! »

« وهل ... ... »

« نعم يا سيدى ، لقد أعدمت ، فهل لك أن تأمر لى بفنجان من الشاى وسيجارة ؟! »

٦

كان النقيب هورس ، واحداً من الضباط البريطانيين الذين اشتركوا مع المخابرات الأمريكية فى البحث عن سر اختفاء... « زهرة الشمس» ... وهكذا لعبت المصادفة دورها فى الكشف عن وفاة هذه السيدة التعسة ... ولقد كان للخبر الذى قاله السيد ميخاليسكى وقع القنبلة على ضابط المخابرات البريطانى الشاب ، الذى أسرع بطلب فنجان من الشاى وبعض الشطائر للضابط الروسى سيء الحظ ، والذى كان يعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية ... كان هورس يرتجف انفعالا وهو يستمع إلى تفاصيل ما حدث مع باندا فى ساعاتها الأخيرة .

وبطبيعة الحال ، ما أن مضى يومان بعد وصول ميخاليسكى هذا ، حتى وفد إلى هونج كونج أحد رجال الـ سى . آى . ايه . كى يلتقى بميخاليسكى ويسمع منه تفاصيل ما حدث !

ولقد قص ميخاليسكى على الضابط الأمريكى ــ وكان قد استعاد قواه وحظى بالراحة المفتقدة ــ قصة بالغة الغرابة ، قصة إعدام باندا ماكلويد ...

ولكن ... بالرغم من معرفة الجميع لتفاصيل النهاية . فإن ملف باندا لم يغلق ... ذلك أن جزءاً هاماً من القصة ظل غامضاً . وهو الجزء الخاص الذى يحكى قصة انتقال باندا من الصين إلى كوريا ... وكان السؤال المطروح هو : ما الذى دفعها إلى هذا الانتقال ؟! ... ولماذا تصرفت من تلقاء نفسها ودون انتظار للأوامر ؟!...

ولثلاث سنوات كاملة ظل الملف مفتوحاً ... ولقد بذلت جهوداً مضنية لمعرفة ما حدث دون جدوى ... وبدا الأمر غريباً غرابة تبعث على الشك فى مثل هذا العالم . حتى جاء وقت أدرك فيه البعض : أن الملف سوف يظل مفتوحاً إلى الأبد ... ذلك أن تلك الفترة التى سبقت الانتصار النهائى للثورة الشيوعية فى الصين . وسبقت اندلاع الحرب الكورية . كانت من أحلك الفترات فى تاريخ المنطقة وأكثرها ازدحاماً بالأحداث التى كانت متشابكة وكثيرة إلى درجة تبعث على البلبلة لا الحيرة فقط ...

حتى كان يوم من أيام خريف عام ١٩٥٣ ، عندما وصلت إلى كوريا الجنوبية ، سفينة مليئة بالجنود الأمريكيين الجرحى والمرضى والذين كانوا فى معسكرات الاعتقال ...

وكان طبيعياً أن يكون بين الجنود عدد من المدنيين ... غير أن واحداً من هؤلاء المدنيين ، كان يعانى من مرض السل فى مراحله

الأخيرة ... لم يكن أحداً يعرف هذا الرجل ولا اسمه ، كان ضعيفاً ضعفاً أكد للأطباء فى المستشفى الذى نقل إليه ، أن أيامه معدودة ... وهو ، هو نفسه كان يشعر بقرب النهاية ... ذلك أنه ، منذ اللحظات الأولى ، كان له طلب بدا للجميع غريباً ... فلقد أراد أن يزوره أحد ضباط المخابرات المركزية الأمريكية ... ولم يكن الطلب مستحيلا ، وبطبيعة الحال ، وفيما يختص بالأسرى بالذات ، كانت هناك مجموعة عمل من رجال الـ « سى . آى . إيه » ، وكانوا جاهزين للاستماع كما كانوا أيضا مستعدين بعشرات الأسئلة ... ولقد أسرع أحدهم إلى الرجل الغامض ، الذى بدا له شاحبا شحوبا عظيما ... كان يعرف – قبل أن يدخل الغرفة ــ أن أيام الرجل معدودة ، ذلك أن المرض كان قد تضافر مع الضعف والوهن وقلة التغذية ، للقضاء عليه ... لكن الغريب فى الأمر أنه لم يجد لهذا الرجل اسماً ، لا فى السفينة التى أقلته إلى كوريا الجنوبية ، ولا فى المستشفى ... كما أنه لم يجد من يعرفه من الأسرى من الجنود !

اقترب الضابط الأمريكى من المريض وهو يهمس :

« اسمى الكابتن هندريكس ، وأنا من المخابرات المركزية الأمريكية ! »

أومأ المريض إلى أحد المقاعد وهو يقول :

« أرجوك أن تجلس إلى جوارى وأن تستمع إلى جيداً دون مقاطعة ! »

جذب الكابتن هندريكس مقعداً وجلس إلى جوار الرجل :

« ما الذى أستطيع أن أصنعه من أجلك ؟! »

« إننى على وشك الموت . وأنا أعرف أنه لا سبيل إلى إنقاذ حياتى بعد كل الذى عانيته ! »

« ثق يا سيدى أننا سوف نفعل قصارى جهدنا لشفائك !»...

« أن اسمى الآن بيرس ! »

هتف الضابط الأمريكى :

« أوه ... مستر بيرس . لقد أعيتنا الحيل فى البحث عنك ! »

« أعرف ذلك ! »

« ثق أننا سوف نعمل المستحيل من أجلك ! »

« أرجوك أن تسمع ، فهناك ما أريد الافضاء به إليك قبل الرحيل ! »

« إنى مصغ إليك ! » .

راح الآن بيرس يتحدث فى لهفة وسرعة وكأنه يخشى أن يداهمه الموت قبل أن يكمل حديثه ... قال أنه أرسل إلى الصين الشعبية فى عام ١٩٤٩ ... وفى شنغهاى ، استطاع أن ينضم إلى إحدى بعثات الصليب الأحمر التى كان مقرراً لها أن تسافر إلى « شنج كنج » مقر قيادة ماوتسى تونج ...

« ... ... وهناك ألتقيت بسيدة جميلة تحمل اسم « ولهلمينا فان ديرين » ، وقالت أنها كانت زوجة لمبشر هولندى فى هانكاو »

مال الكابتن هندريكس على السيد بيرس قائلا فى لهفة وعدم تصديق :

« هل لك أن تعيد على الاسم مرة أخرى ؟! »

« ولهلمينا فان ديرين ، وكانت تتمتع بعلاقات حميمة مع العديد من أعوان الزعيم الصينى ماوتسى تونج ! »

توقف بيرس عن الحديث ريثما يلتقط أنفاسه المتقطعة ، وراح الكابتن هندريكس يكدح زناد فكره ، فلقد كان اسم « فان ديرن » بالذات يبدو له مألوفا بعض الشىء ... وعندما عاد بيرس إلى الحديث ، أعطاه كل اهتمامه ... قال :

« ظننت إذا كانت هذه السيدة زوجة لمبشر هولندى حقاً ، فلابد أنها من الممكن أن تتعاون معنا ، غير أننى ما أن بدأت الحديث معها حتى صارحتنى بأن اسمها الحقيقى هو « باندا ماكلويد » ، وأنها تعمل لحساب الأمريكيين الذين جندوها فى باتافيا عاصمة جاوه ! »

عاد بيرس إلى الصمت من جديد !

أما الكابتن هندريكس فلقد كان ينتفض انفعالا لما يسمع ، ذلك أنه كان على علم بقصة « زهرة الشمس » وذلك الجزء الغامض الذى حيرهم منذ ثلاث سنوات ... ولقد لزم بيرس الصمت لثوان عاد بعدها إلى الحديث :

« كان من أصعب الأمور أن أصدقها ، فكيف تعترف لى بحقيقة

أمرها بمثل هذه البساطة ، ولابد أنها عميل مزدوج يريد الإيقاع بى ... لكنها فى نهاية الحديث طلبت منى أن أغادر شنج كنج لأن أسمى وضع فى القائمة السوداء !! »

كان الأمر ، ليس بالنسبة للسيد بيرس وحده ، ولكن بالنسبة لكل القوانين والأعراف ، خرقا جريئاً لكل قواعد الأمن ... غير أن السيد بيرس ، عرف فى نفس الليلة من مصادره الخاصة ، أن اسمه كان قد وضع بالفعل فى القائمة السوداء ، وعلى هذا فلقد قرر أن يهرب إلى كوريا ، إلى مالينج سونج بالذات !.

ثم أضاف السيد بيرس :

« وكان لابد لى أن أصف الطريق لباندا بعد أن عرفت حقيقتها قبل رحيلى ، ورغم خطورة اتصالى بها إلا أنها غامرت ، ووصفت لها الطريق من « شنج كنج » حتى « مالينج سونج » ، وطلبت منها ألا تتردد فى الهرب إذا ما أحست بأى خطر ! »

بدأت قوى السيد بيرس فى الأنهيار فجأة ، فراح يلهث وراء الكلمات :

« وصلت إلى مالينج سونج بعد ثلاثة أسابيع ، وهناك علمت أن واحدة من أقرب صديقات باندا ومن المقربين لماوتسى تونج قد تم اعتقالها ، فأدركت أن باندا لابد سوف تلحق بى أن استطاعت الإفلات ! »

وبالفعل وصلت باندا إلى مالينج سونج قبل اشتعال الحرب

الكورية بأيام قليلة ، وكانت تحمل معها كل الوثائق الخاصة بإشعال هذه الحرب من الجانب الشيوعى ... وكان جهاز اللاسلكى الخاص بباندا قد أصابه العطب ، كما كان بيرس نفسه فى حاجة إلى جهاز يرسل تقاريره ، فعكف على إصلاح جهازها ، ومن خلاله أرسل كلاهما تقريره إلى طوكيو .

« ... ثم ... ثم افترقنا بعد ذلك ! واعتقلتْ بعدها ببضعة أسابيع !. ولم أعرف شيئاً عنها بعد ذلك ! »

• • •

لفظ السيد بيرس أنفاسه الأخيرة بعد بضع ساعات ، لكن الكابتن هندريكس كان يعلم أنه أصبح يملك كنزاً من المعلومات عن « زهرة الشمس » أو باندا ماكلويد ، ومالبث أن طار إلى طوكيو ... كان هذا بعد واحد وعشرين يوما بالتمام والكمال ... وما أن أفضى الكابتن هندريكس بما لديه لرؤسائه ... حتى اجتمع اثنان من المخابرات الأمريكية فى إحدى غرف المبنى الذى كان هذا الجهاز يحتله فى طوكيو ، كان الاجتماع بينهما سريا للغاية ، وكان — أيضا — يبعث على الشجن ... فبعد أن وضعت قصة بيرس فى مكانها ، اكتملت كل المعلومات الخاصة بباندا ماكلويد ... أو « زهرة الشمس » ابنة ماتاهارى !

• • •

والآن ... ما الذى قاله السيد ميخاليسكى قبل ثلاث سنوات من حديث السيد بيرس ؟!

قال أنه كان يخدم فى إحدى الفرق الشيوعية بعد أن انضم إليها كشيوعى متطوع من الاتحاد السوفيتى ... ثم علم ذات ليلة ، أنهم قبضوا على سيدة تعمل لحساب الأمريكيين فى مالينج سونج ، وأن ثمة محاكمة سريعة قد تمت ، بعد العثور على جهاز اللاسلكى الذى كانت تستعمله فى إرسال المعلومات إلى المركز فى اليابان ... وأن حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص قد صدر ضدها ...

كان الوقت شتاء وقد وصلت درجة الحرارة إلى مادون الثلاثين تحت الصفر ، وبالرغم من هذا ، فلقد ألقوا بها فى كوخ ليس به فراش أو غطاء ... لم يكن هناك سوى حشية معبئة بالأوراق القديمة ، ونوافذ الكوخ قد تحطم زجاجها واستعاضوا عنه بورق مقوى لم يصمد طويلا أمام العواصف الثلجية التى كانت تجتاح المنطقة اجتياحا ... غير أن السيدة – هكذا قال ميخاليسكى — كانت ترتدى من الملابس ما يكفى لأن تقيها شر الموت بردا ، ولفترات طويلة لم تخلع ملابسها ، وظلت فى هذا الكوخ حتى صدر الحكم ضدها .

• • •

كان الفجر يقترب عندما استيقظت باندا ماكلويد من نومها على أصوات فى الخارج ، كان صوت الرياح قوياً وعنيفاً وقطع الثلج المندوف تتساقط منذ مساء الأمس دون توقف ، همت بالنهوض من رقدتها عندما اقتربت الأصوات من الكوخ ، لكن جسدها كان متيبساً تقريبا ، وكان الظلام فى الكوخ دامساً ، وكانت هى تعرف

يقينا ، انهم إذا جاءوا هذه المرة ، فلكى يضعوها أمام فرقة ضرب النار ... تماما ، مثلما حدث لأمها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ... وكان عليها ، كلما اقتربت الأصوات من الكوخ ، أن تستعد للقاء قدرها المحتوم ...

توقفت الأصوات والأقدام ، وفتح الباب .

وفزعت باندا ...

كانت الآن شاحبة واهنة تقدمت بها السن كثيراً عن ذى قبل ، ولابد أنها كانت قد فقدت الكثير من سحرها وجمالها اللذين اشتهرت بهما ... دفعها الخوف والفزع إلى النهوض فجلست فى الفراش تحملق فى الباب المفتوح وكانت ترتعد من البرد والفزع معا ... ثمة أشباح كانت تروح وتجىء وتتحرك فى فتحة الباب ... وسمعت باندا وجيب قلبها ، فلابد أنهم الآن يجهزون ساحة الإعدام لفرقة ضرب النار .

كان اليوم هو يوم ٢٤ ديسمبر عام ١٩٥٠ ، وكانت الحرب الكورية مشتعلة منذ شهور ... بعد دقائق مرت كأنها دهور ، أضىء مصباح كهربى يحمله رجل ... وفى الحال ، أضىء مصباحين آخرين ... وراحت أشعة المصابيح الثلاثة تفتش عنها فى أنحاء الكوخ الملىء بالأثاث القديم والمتهالك ... حتى إذا استقرت أشعة أحد هذه المصابيح على وجهها . توقفت حركة الرجال ، وانضمت أشعة المصباحين الآخرين إلى شعاع المصباح الأول فأعمى الضوء عينيها ...

من خلف الضوء المبنثق جاءها صوت رجل ، صوت بارد لاحرارة فيه :

« **هل أنت خائفة ياسيدتى ! »**

« **أنا لست خائفة فقط ، ولكنى فزعه ! »**

مضت لحظات صمت لم يأتيها فيها جواب ، فعادت تقول :

« **ماذا تريدون منى ؟! »**

تقدم منها أحد الرجال ، وحملق فى وجهها طويلا ثم قال :

« **ألست فاشستيه ؟! »**

راحت ترتعد بعنف ، فلقد هبت من الخارج دوامة من الهواء حملت معها قطعاً من الثلج المتساقط .

« **انهضى ! »**

هكذا جاءها الصوت مرة أخرى ، حاولت النهوض ولكنها اكتشفت أن ساقيها قد غطيتا بطقة من الثلج جعلت إحساسها بهما معدوما ، جاء صوتها الواهن يقول :

« **لاأستطيع ! »**

جذبها الرجل بعنف قائلا :

« **انهضى ! »**

من قلب الظلاج جاء صوت رجل صارم النبرات :

« **لاتفعل هذا ! »**

هم الرجل الأول بالحديث فعاجله هذا بقوله :

« **لاتنسى أنى الآمر هنا ! »**

مد الرجل يده كى يساعدها على النهوض بمساعدته وكانت تترنح ... كان هذا الذى امسك بذراعها يرتدى بذله غريبة ذات خطوط طويلة تمتد من أعلى إلى أسفل ، وكانت قبضته تبدو حانية وكأنها تحدثها بلغة خاصة ، رفعت باندا عينيها وحملتق فى الرجل ، فغمغم فى صوت هامس :

« **لاتفكرى كثيرا ، فلن تعرفينى وإن كنت أعرفك حق المعرفة ! »**

ولابد أنه باندا فكرت فى تلك اللحظة ، أن حديث الرجل لم يكن سوى خدعة من تلك الخدع التى تدفعها إلى الاعتراف ...

غادرت الكوخ وهى تسير بين الرجلين ... بينما بقى الثالث عند الكوخ ... كانت تسير بصعوبة بالغة ، كما أنها كانت ترتعد ... فسألها الرجل :

« **أليست لديك ملابس أخرى ؟! »** .

هزت رأسها نفيا ...

وكان عليهم الآن أن يخترقوا المعسكر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب حيث تقوم ثكنات الجنود ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر دقيقة ، سقطت خلالها باندا مرتين أثناء السير ، لكنها كانت ، بالرغم من الآلام ، تنهض كى تواصل السير .

اقترب الثلاثة من الكانتين . وجاءتهم من الداخل أصوات الجنود رغم الوقت المبكر ... واقترب بها الرجلان من أحد الأبواب ، فقال الأول :

« **ما الذى سوف تفعله بها أيها الرفيق ؟!** »

« **إن القومسبير لن يأتى قبل السادسة صباحا ، ولذلك فلسوف نضعها فى هذه الغرفة إلى أن يأتى !** » .

فتح باب الغرفة وكانت خالية تماما من الأثاث ، لكنها ــ على كل حال-كانت أكثر دفئا من ذلك الزمهرير فى الخارج ، ما أن دلفت إلى الغرفة ، حتى أغلقوا الباب عليها .

قال ميخاليسكى ، أنه كان المسئول فى تلك الليلة عن باندا ماكلويد ، وأنه فكر فى وسيلة تهريبها وكان هذا مستحيلا بكل المقاييس ... أكثر ما كان يضايقه ، أن الأمر كان قد صدر له فى الليلة السابقة ، بأن يقود فرقة ضرب النار عند تنفيذ حكم الإعدام فى باندا ...

ولقد غاب ميخاليسكى مع زميله السابق لساعة ، ثم عاد إليها ، فتح الباب فى رفق ودلف إلى الداخل ، فانكمشت باندا لرؤيته وألتصقت بالحائط .

« **ماذا تريد ؟ !** »

أخرج من ملابسه « تورمسا » صغيراً قدمه لها هامساً :

« **اشربى قليلا من هذا الشراب الساخن ، فسوف يفيدك !** »

حاولت آن تمد يدها كى تمسك بالتورمس ، لكنها عجزت ، فلقد كانت أصابعها متجمدة تقريبا !

« **لماذا لاتقضون على بسرعة !** »

هكذا سألت فعاد ميخاليسكى إلى الهمس :

« **إنى أفكر فى وسيلة لإنقاذك ، ولسوف أحاول ، وإن كنت أشك فى أن محاولتى سوف تنجح !** »

قال هذا وهو يحيطها بذراعه ، ويصب الشراب الساخن فى فمها :

« **ماذا تريد منى ؟!** »

« **لقد وصل القومسيير ، هل تريدين نصيحتى ؟!** »

«**ماذا تريد أن تقول ؟!** »

« **سوف يعرضون عليكى التعاون معهم ، فتظاهرى بالموافقة !** »

« **ليتنى أستطيع !** »

لم يفهم ميخاليسكى المغزى الكامن وراء جملتها فعاد يهمس بسرعة وهو يصب بعضاً من الشراب بين شفتيها :

« **أقول لك تظاهرى أيتها السيدة ، تظاهرى بالموافقة لتنقذى رأسك !** »

« **لست بقادرة على التظاهر . !** »